ماهر شرف الدين







ماهر شرف الدين

أبي البعثي





الطبعـــة الأولـــى، ٢٠٠٥
ISBN 9953-11-011-5

صندوق بريد: ١١/٥٢٢٢ بيروت - لبنان
هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٥٥ ٣٦ ٠٤ - ٧٣ ٩٨ ٥٠
aljadeed@cyberia.net.lb

توطئة

لأني عشت طفولتي وصباي موزعاً بين محافظتي الحسكة في أقصى شمال سوريا، والسويداء في أقصى جنوبها، حيث الازدحام اللغوي والأقلوي، وحيث التخمة التاريخية... لا بد أن أفكر في ذلك القَدَر كامتياز: بين الحسكة التي أمضيت في جوارها عيشاً وخرافةً أكثر من تسعة عشر عاماً، والسويداء التي منها قدمتُ، تمتد كامل المساحة لبلاد تدعى سوريا. لبلاد تشبه علب السجائر التي غالباً ما يُكتب عليها أنها ذات نكهة فاخرة، وفي الوقت نفسه أنها مسببة لأمراض مميتة. لم يصبح العمر الطويل من شيمي كي أدّعي سيرة أرويها. لكني أحسب أن كل الذين عاشوا في بلاد كبلادي، ومهما كانت صفتهم أو عمر تجربتهم، لهم الحق في رواية سيرة ما: بات من حق كل سوري، لمجرد أنه سوري، أن يروي حكايته. السوريّة، التي أصبحت طقساً أكثر منها هوية، باتت تصلح كذريعة للرواية والسرد. بفضل أبي اكتشفتُ أن

البعثية في سوريا تكوين شخصية ونفسية، (الضعف والعنف) أكثر منها حزبية. ألسنا البعثيين قبل ولادة البعث؟ كان أبي بعثياً في شخصيته: ضعيف وقاس. كرهتُ البعث من وراء أبي قبل أن أفهم مبادئ هذا الحزب. لذلك ربما اختلط عليّ كل شيء في هذا الكتاب. كم تبدو لي حكاية الكتابة في بلادنا الخائفة شبيهة بحكاية مارد المصباح الذي قال لمن خلّصه: عبدك بين يديك. هي بالضبط حكاية الانتقال من السجن إلى العبودية. آخر القول، أن تكون سورياً زمن الاستبداد، وأن تكون أقلوياً زمن التعصب، وأن تكون ابناً لرجل بعثي... يعني أن تكون روائياً جيداً. هكذا يكون الحظ!

م. ش. د

إذاً

إلى أبي

خيانتي هذه

على شكل كتاب

ثمّ إن أغلى الخيانات

تلك التي تُهدى

مطر ينقطع كالتنفس، أعتاب مليئة بالشحّاطات، ليل مشدود كالطبل، برق متقطع كعود ثقاب مبلل، نجوم تلمع كأنها غُسِلت للتو، جنود خضر كالطحالب، عقارب ممعوسة كأعقاب سجائر، قمر مصاب بالرمد، قمر متورم كعين، قمر أحمر مليء بالشرايين، قمر مبقور البطن بسكين، قمر مفلوق بالبلطة. حشود من النمل، والعميان، والعُرْج، والبُرْص، والجُرْب، والعُور، والأرامل، والشحاذين، والحبالى، والحائضات، والمنقّبات، والبدينات، والمعتوهات، والعاهرات، والمخنثين، والمهووسين، والمشلولين، والمخبولين، والمتعصبين، والمنبوذين، والمصروعين، والمشوهين، والقوّادين، والمفلوجين، والكلاب المسعورة، والخيول المجذومة، والجمال الجرباء، والبغال

النافقة، والعجول المخصية، وبنات آوى. البارحة. نعم البارحة. هجمت عليّ تلك الكوابيس. هجمت عليّ دفعة واحدة. أصبتُ بالصرع والعرق والحمّى. خيالي قوي وغاشم. أفهم ذلك. لكن ذاكرتي عدوّة أيضاً. أنا الآن أتذكر وأعترف. أتخيل وأعترف. التذكر في بلادنا اعتراف. التخيل اعتراف. أفهم ذلك. لكني مصاب بالصرع والعرق والحمّى، ورأسي مفخخ كسيارة، وذاكرتي. أشعر أني مشوش الآن. كان عليّ المرور من خلال جموعهم. نعم نعم. كان عليّ اجتيازهم والاصطدام بأكتافهم، وكان عليهم أن يكونوا بالملايين، وأن يحسبوني لبنانياً. لكني كنت السوري الوحيد بينهم: أمشي وأتذكر. وعندما صاح الخطيب بالمتظاهرين: مين فينا مش لبناني؟ كنت أريد أن أصرخ: أنا، أنا. كنت أريد إخراج هويتي السورية، كي ألوح بها كراية فوق رؤوسهم النظيفة والممشطة. كنت أريد أن أقول لهم إن السوريين معكم، وأشرح لهم الفرق بين الشعب والسلطة. لكني لم أفعل ذلك: كان الجميع مشغولاً بحريته، وكنت مشغولاً بذاكرتي. حين كان الكبار يروون أمامنا قصة فلان الذي ابيضّت عيناه جراء التعذيب في فرع المخابرات، وفلان الذي اقتادوه عارياً من بيته بعدما ناكوا زوجته، وفلان الذي

جابوا به شوارع البلدة ممسكاً حذاءه بأسنانه. كنت ولداً أستمع فأرتعب، وحين أرتجف أتغطى إلى فوق رأسي باللحاف، وأقول إنهم كاذبون، وأقسم إنه خيال. أن أكون سورياً في ساحة الشهداء يعني أن أكون سورياً يتذكر: لا أفظع من سوري يتذكر. هكذا أكتب ما أكتب. أمشي وأتذكر... البارحة. نعم البارحة. تذكرت جدّي الذي مات منذ عام، فبكيت. لكني يومها أصبت بموجة من ضحك هستيري حين أخبروني بموت ذلك العجوز ذي الوجه المقطّع كجسم عقرب، والسنّ الوحيدة كملعقة في بالوعة، واللسان الشبيه بأحشاء الخنافس. يومها رحت أضحك بكل ما أوتيت من قوة قائلاً: مات الحريق، مات الحريق. كما كان يقول بشماتة لدى سماعه بموت أحدهم. لكني البارحة تذكرته فبكيت، كما لو أني سمعت بموته للتو، وهو يمسح شاربيه بخرقة سمراء مقلّمة بالأزرق، قائلاً لي إن الحرية يصنعها المساجين كما يصنعون السبحات والميداليات. كانت لحظة حاسمة في حياة ولد مصروع: رأيت نفسي سجيناً في زنزانة واسعة وفسيحة، أعترف أني تخيلتها على هذا النحو. قضبان ملوية، حبال مقطّعة، أصفاد مكسّرة، جنازير حامية. السلاسل الحديدية في يديّ ورجليّ وعنقي، كم كنت أنتشي حين

أتخيل وزنها الثقيل في عنقي، والناس خارج السجن يهتفون باسمي، وأنا أزداد جاذبية وقوة. كنت على وشك أن أجيب الذين يسألونني عن طموحي المستقبلي بالقول: سجين سياسي. لكنني لم أفكر في ذلك كله يوم دخلت السجن. كان المشهد مرعباً، وفكرت أن الحواس هي شيء سيئ. سجن دائري عبارة عن قبّة واطئة وصغيرة مدهونة بالكلس، ومليئة بالخربشات والأظافر وفردات شحّاطات مقطّعة. بمخلوقات حفاة وقذرون يستمنون في البطانيات والحمّامات وعلى الحيطان، خِرَق مليئة بالروائح الآدمية، وجوه محفرة، عيون مخاطية صغيرة، صرصور مهروس بركبة نائم، الكثير من شعر الأنف، بصاق مع أسنان مكسرة، كتل من المخاط والدم، جورة مرحاض رخوة، نقوش بدائية محفورة بالمسامير، حِكَم تافهة موقّعة بالأحرف الأولى، رسوم فحمية تمثل عاريات بدينات، مخاط متيبس ذو لون أخضر داكن، وعلى الحائط المواجه لمكان منامتي شعار بعثي كبير الحجم يقول: إلى الأبد يا حافظ الأسد. في البداية أرعبتني فكرة أن السجن قبّة من دون زوايا: حائط بيضوي وحيد، بنافذة وحيدة. كنت أحدق فيه فأختنق. ففي أي زاوية أعلّق عينيّ؟ جرّبت تثبيتهما على السقف، لكنهما انزلقتا. على الحائط، انزلقتا. على

النافذة. على الأرض. شعرت بضيق في التنفس. رحت أفكر في العناكب. تمنيت أن أرى عنكبوتاً. أحسست أني عنكبوت، ولا زاوية لدي. لكن ذلك الشعار الذي كان يربض على الحائط وعلى صدري، فجأة تخلّى عن معناه: أصبح شخصياً بشكل تعسفي. إلى الأبد، السجن يضيق. إلى الأبد، العيون تتسع. إلى الأبد، الحلم زاوية. فجأة، ضربني إحساس هائل بالجوع. هبط عليّ ناقماً وكاملاً كالوحي: ضيق في التنفس، وطعم حريق في فمي، ويداي فوق بطني. أحسست للحظة أن قلبي توقف، ورأيت القبّة تنقض عليّ. فكرت أني أتنفس من معدتي، وأن السجناء يحتقرونني، وأن الشعار هو السبب. لذا غيرت مكان منامتي، ففرشت بطانيتي تحته مباشرة. لكني بعد لحظات قليلة انتبهت إلى أنه قد يقع فوق رأسي. أحسست أنه معلّق وثقيل، رأيته يتأرجح ككيس حجارة، رأيت الخيط ينقطع... بعد بضعة أيام نقلونا إلى سجن كبير ليس فيه شعارات، ومليء بالزوايا. صحيح. لكنها زوايا عنيفة وغير واقعية. أنا لا أعرف إذا كانت كذلك حقاً، لكني رأيتها هكذا. كنت كلما نظرت إليها أشعر أني سأفعلها في ثيابي: استرخاء محرج في رجليّ، وحكاك في مؤخرتي، وجفاف في فمي. وهناك بدأت أحكي للمساجين عن أهمية

النوم والضوء مشتعل. فقد كانت حسنة السجن الوحيدة هي إبقاء الضوء مشتعلاً طوال الليل، يفعلون ذلك بقصد التعذيب، لكن السجناء حسبوني مجنوناً. بدأت حكاية إدماني النوم في الضوء منذ طفولتي، يوم تركنا مدينة الحسكة وانتقلنا للعيش في مدينة الشدّادي التابعة إلى الشركة السورية للنفط التي يعمل فيها أبي. الحقيقة أننا لم نعش في مدينة الحسكة، لكن على أطرافها في حي مخيف يدعى غويران: مزيج خانق من عائلات ديرية نسبة إلى دير الزور تشكل أكثرية قاطنيه، وبعض من كرد القامشلي، وقلة من دروز نازحين من الجولان، إضافة إلى متفرقات موظفين في الدولة من حلبيين وعلويين وأدالبة، والكثير من الشوايا (البدو) الذين يدعون أنهم ديريون تقيةً ورأباً لنقص يشعرون به. كان الديريون مولعين بضرب الشوايا، وتمريغهم في الوحل بجلاّبياتهم الداكنة وشواربهم الغليظة ومناديلهم الحمراء المنقّطة. لذا كان على شوايا الشمال الذين قدموا المدن إنكار أصولهم، وليّ ألسنتهم عند الكلام والتشديد على حرف التاء، كما تفعل العائلات الديرية. مجارير هذا الحي دائماً مفتوحة كأبواب بيوته، وغالباً ما يترك العمال القذرون أحشاءها المرعبة جانبها. الطرقات المسوّرة

بالمزابل برك وحل ومياه كهاريز في الشتاء، وحفر قمامة في الصيف. الروث البشري كالنفايات وأكياس النايلون مطروح في كل مكان. والبذاءة صفة يتفاخر بها ساكنوه على مثال ما يتفاخر الآشوري بنظافته. كنت أخاف كثيراً من أطفال هذا الحي، لأنهم كانوا يترصدونني أينما ذهبت، ويحسبونني مسيحياً، وحين يستفردون بي يوقفونني إلى الحائط، كي يتباروا في البصاق عليّ. الفائز بينهم، أي الذي تصيب بصقته وجهي، يقوم بضربي وتمريغي في السيان. لكنهم كانوا مدهشين حقاً. وجوه نحيلة بعيون كبيرة وسوداء كأنها مرسومة بالفحم. حبّات الغبار الذهبية على رموشهم الطويلة. ضحكاتهم العريضة، وبصاقهم الدائم يكشفان بشكل سحري صفوف أسنان ناصعة البياض، وأنوفاً مقشرة. يركلون حصباء الطرق بسعادة، ويبصقون على الأرض من بين أسنانهم قبل أن يفركوا البصقة بأقدامهم كسيجارة. وبعدما يغسل غبار الطرق أرجلهم الحافية، ويلعق العرق جلودهم الداكنة، وهم يتحدثون عن اغتصاب المسيحيين والسواح الأجانب، يضعون رؤوسهم تحت صنابير مكسورة، ويتركون للشمس تنشيف شعورهم المبللة بمنشفتها الضخمة. كان كل ذلك مصدر قلق لأبي، الذي منعنا من الخروج إلى الشارع،

أو الاختلاط بهم، أو حتى تقليد اللهجة الديرية. عندما سيقع كتاب «الأمثال الديرية» في يدي سأبقى ثلاثة أيام من دون نوم، وسأرسم في تلك الحمّى رسماً تخيلياً لفرج معلمتي. كانت المرة الأولى التي أرى فيها كلمة كسّ مطبوعة، وكلمات من مثل: أير، طيز، زبّ... محفوظة في كتاب. كان شكلها آسراً وسحرياً كقطعة نقود على الرصيف. لحظة إلهام شبيهة بتلك التي رأيت فيها اسمي لأول مرة مطبوعاً في جريدة. أو كتلك التي تلصصتُ فيها على والديّ وهما يستحمان في العتبة، عندما طلبا إلينا، أنا وإخوتي، طمر وجوهنا في الفراش ريثما ينتهيان. كان زعران غويران وشبانه يترصدون طوال النهار مرور أحد الغرباء، الأفضل أن يكون مسيحياً، كي ينقضوا عليه فيضربوه بعد تمزيق ثيابه، ويمسحون ذكورهم في مؤخرته، قبل أن يجبروه على السجود وترديد عبارة: لا إله إلا الله محمد رسول الله. رغم أنهم لم يكونوا متدينين أبداً، بل أقرب إلى الإلحاد، حتى أن الله ورسوله لا يفارقان شتائمهم وسبابهم. لكنهم سرعان ما ينقلبون مؤدبين، بشكل يدعو إلى الريبة، فيتكلمون همساً، ويمشون بخطوات قصيرة، ساعة وصولهم إلى شارع «المحطّة» ذي الغالبية المسيحية الذي يزورنه كل مساء كي

يتلصصوا على فتياته البيضاوات و«الفراريج»، كما كانوا يكنّون عن المسيحيات الصغيرات. أيضاً كانوا يضحكون كثيراً، وغالباً دونما سبب. في حرب الخليج الثانية، التي اشترك فيها الجيش السوري لإخراج صدام حسين من الكويت، ألبس أهالي غويران بعضاً من كلابهم الضالة ربطات عنق وطبعوا على بطونها وظهورها أسماء بعض المسؤولين السوريين. كانت الكلاب المسكينة تُقتل في الطرق دون أن تعرف السبب الذي يجعل منها هدفاً لنيران الشرطة السورية. لذلك كان على الدولة إشغال سنّة الشمال السوري عموماً، الأكثر تعصباً لنظام البعث العراقي، وإلهاؤهم باختراع المعجزات لهم: تيس مدينة البوكمال كان أشهر تلك المعجزات. في البداية قالوا إن تيساً يحلب في البوكمال، ثم قالوا إن لحليبه خصائص سحرية، ثم قالوا إنه معجزة: حليبه منيّ للعاقرات، ومهدئ للمصروعين، ودواء للمفلوجين، وبركة للتجار، وقاتل للحسّاد... وغطّى كل ذلك التلفزيون الرسمي. مئات الألوف من أبناء تلك المنطقة وخارجها دفعوا أموالهم كي يشربوا من حليب هذا التيس. سرسوح كان يطالب أهله أن يأتوه بالحليب المقدس. سرسوح الولد الأصم الذي كان يتقن الكتابة وعصر أيدي البنات، والذي

رفض أهلُه إجراء عملية السمع له من أجل إعفاء أخيه من الخدمة العسكرية. لذا كان عليه أن يُنزل بندقية الصيد الألمانية من السقيفة، ويطلق النار عليهم جميعاً. لكنه لسوء الحظ لم يقتل أحداً منهم. كان سرسوح يكتب لنا كل ما يراه، محاولاً إضفاء مسحة سحرية على عينيه. حين ينظر إلينا، كنا نظن عينيه تسمعان وتجيدان الكلام. وحين نجلس معه ونراقب نظراته الحادة ورموشه القلقة عن قرب نشعر بخشونة الأشياء أكثر في عيوننا. خشونة بصريةً. كذا. خشونة بصرية تزوّد الأشياء بزوايا حادة وحواف مسنونة، فنحسّ تقرّحاً في أعيننا حين ننظر. كانت كل حركة مفاجئة تجرح أبصارنا. لا أعرف كيف أصف ذلك. خشونة بصرية يعني ككومة من أرجل الجراد، كصفوف من ذيول عقارب مرتّبة في علبة سجائر، كلسان مقطوع فوق لوح صابون، كقيء امرأة في صحن الطعام، كحلمة مفرومة بسكينين، كمياه رأس مكسور. ربما بسبب عينيه الجاحظتين والمطرّزتين بالشرايين. كان سرسوح حزيناً وشريراً في آن، وكنت أتعاطف معه وأخاف منه. ذات يوم أمسكني من خصيتيّ حتى أغمي عليّ. كان ابناً باراً لهؤلاء البدو الذين سكنوا في بيوت الباطون، ولم يكن لهم من المواهب والمتع سوى اقتلاع

شتول الشجر الصغيرة التي زرعتها الدولة حول المنازل، وكسر أضواء المصابيح على الطرق، وإمساك الغرباء من خصيهم، وتقليد الديريين. هؤلاء الشوايا الذين لا يطيقون رؤية الأشجار حول بيوتهم، كانوا يشعرون أنها فأل سيِّىء. أما المثمر منها، والمزروع في جنائن البعض، فكانت ثماره الهدف الدائم لغزواتهم. والد سرسوح كان خدم عسكريته في السويداء، وكان كلما رآني يعيّرني بغرابة الدروز هناك، بسبب دالية عنب نابتة في الطريق، ذبلت حبّات عنبها ولم يقبل أحد أن يقطفها خجلاً من جيرانه. انحنيتُ عليها وقطفتُها على مرأى من عيونهم جميعاً، قال لي عاقفاً سبابته وإبهامه على شكل إشارة استفهام. كنت أشعر بالغربة عندما أسمع ذلك. كانت الحسكة خليطاً هائلاً من آشوريين وسريان وكلدان وأرمن ومردلّيين وكرد ويزيديين وشوايا. مسيحيو هذه المدينة هم أهلها الغرباء. نشفوا نهر الخابور، كان يقول نرسي الآشوري عن الشوايا الذين زرعتهم الدولة في تلك المنطقة من أجل تعريبها. وكان لا يملّ الحديث عن أن الشاوي حين يغتني من حصاد الموسم يقوم بأحد أمرين، وغالباً بكليهما: الزواج على نسائه الثلاث، أو الأربع بعد تطليق إحداهن، أو قتل إنسان لا على التعيين كي يدفع ديّته

إلى أهله. كان أول حبّي مسيحيي تلك المدينة بسبب بناتهم. كنت أسمع زعران غويران الذاهبين إلى شارع «المحطة» وهم يتحدثون عن الحلِمات المسيحية المثلّثة، والفروج المدوّرة، والسرر النافرة، والأرداف المخبوزة، والرقاب النيئة. كنا لا نشعر بالرقي والمدنية إلا حين تزورنا عائلة مسيحية. وكان أبي يتباهى أمامهم بسقوطي في مادة التربية الإسلامية كما يتباهى في نيلي العلامة الكاملة في مادة الحساب. كنا نحاكيهم في كل شيء، ونحلف بالمسيح مثلهم، وكان أبي يضحك بتصنّع حين يسمع أحدهم يحكي مستغرباً أن أحد الشوايا نادى ابنه بالحمار. أبو الحمار شو؟ كان يقول، وكنا نضحك جميعنا، ناسين شتى النعوت التي كان ينادينا بها عندما يغضب. كان يتحدث عن الرقي، واضعاً رجلاً على رجل، وكنت أتذكر المشماية في دار جدي. كنت أتذكر كيف أنها بلا سقف ومن دون باب، وكيف أننا نُنزل سراويلنا ونجلس في محاذاة حائطها البازلتي، عندما نريد قضاء حاجة. قبل أن نستعمل الحجارة الصغيرة في مسح مؤخراتنا. لا أستطيع إلا الشعور بالسحر وأنا أتذكر القحف المعدني في يد جدتي عندما كانت تقوم في كل صباح ومساء بتقحيط خرائنا من المشماية. خراؤنا المصنوع من البرغل

والعدس، والذي غالباً ما يكون مأكول الرؤوس بمناقير الدجاج التي لا تهب بيضها قبل أن تنقده. لكن مدينة الشدّادي التي انتقلنا للسكن فيها كانت قليلة المسيحيين، وموالية للنظام السوري بشكل مقذع. لا تطلع شمس عليها من دون شتم العراق وصدام حسين. وكثيراً ما ترى الأعلام السورية مرفوعة فوق سطوح بيوتها، فتحسبها دوائر حكومية. مدينة صغيرة باهظة التكاليف، صُنعت بأكملها من القرميد الأحمر الغالي، متصلة البيوت، فيها جنائن حوّلها البعض زرائب للحيوانات وأقناناً للدجاج وأمكنة للتبول، في قلب صحراء شاسعة وفضفاضة، غالباً ما تغيب في الزوابع الرملية والعجاج الأحمر الذي كنا نخرج إليه مغمضي الأعين، فاغري الأفواه على وسعها نشرب غباره، ونصيح: كازوز. كل شيء فيها يقدّم بالمجان: الخبز واللحم والخضر والمازوت والكهرباء والماء... منحتها الشركة لبعض مسؤوليها وعمالها من المحظوظين والبعثيين. حشود من أبناء الريف، معظمهم من أبناء الأقليات، الذين ملأوا بيوتها الأنيقة، بعيونهم المليئة بالوحل، وأقدامهم الكبيرة والمسطحة، وشعورهم الزنخة كالزعانف، وأرجلهم الملطخة بالخراء. كانوا يهجمون على سيارات التموين

كالأعداء، ويأكلون اللحم نيئاً، والخضر بترابها، والبصل والثوم تملأ جيوبهم. في كل منزل العشرات من الأطفال والجرذان. أناس يتناسلون كالقطط والأرانب، ونسوة بدينات يحملن الأطفال الرضع على أذرعهن القوية، وأكتافهن المائلة، ورؤوسهن العملاقة، ويتلقين خراءهم السائل وبولهم بالضحك والسخرية. بطون، وبعوض، وحبالى ينجبن البنات واقفات، والصبية واللصوص والعوانس والمعاقين والشحّاذين. كان الشحاذون ملوك الشوارع والأرصفة في تلك المدينة، وكانوا جميعاً من نساء الشوايا والكرد: عجائز قبيحات، أو بنات فاتنات بعيون خضراء كالروث، وجدائل مقطعة حبيباتٍ صغيرة سوداء كبعر الماعز، وشفاه باردة ككبد ذبيحة. كانت كل منهن تتخصص في نوع تشحذه، ولا تشحذ سواه. فواحدة تشحذ السكّر، وواحدة تشحذ اللحم، وواحدة الخبز اليابس، وأخريات الأرزّ والسمنة. وكن وقحات درجة ادعائهن العفة: نعطيهن اللحم والخبز والسكر من دون أن نجرؤ على تملّي وجوههن الجميلة، وشعورهن المغسولة بالحنّاء. لكننا حين نلحق بهن إلى الشُّول (البرّيّة) نجدهن مضطجعات بفساتينهن الطويلة والمقصّبة، وإيشارياتهن الرخوة ينتكن مع رجال

غلاظ الخصور والأصابع. كان اسمها وضحة، تلك الشحاذة الفاتنة التي رأيتها مستلقية على ظهرها تطوق بساقيها العاريتين خصرَ واحد من الذين حبّلوها. كانت فتاة تُشتهى بضربة سكين. كان صدرها، الذي كاد ينفزر فيمزق أعلى فستانها البدوي المزين بكل الألوان، محشواً لوزاً وتيناً وعسلاً. وكانت مؤخرتها متلاصقة الردفين بحيث تظن أنها تخبئ أيراً بينهما. وكان شكل ثغرها موحياً، وعلى نحو لا يترك مجالاً للشك، بشكل فرجها. لكن ساقيها المرتفعتين كسمكتين سمينتين في الهواء، ذلك اليوم، من خلال فستان سميك انحسر عن فخذين بلون اليقطين، كان أهم حدث عصف بحياتي. بسببه صار الحمّام منزلي الصغير والسري، وتحولتُ إلى كيس منيّ مثقوب. صارت كل زاوية في البيت تعني مكاناً مثالياً للاستمناء، وبات كل شق في تنورة نسائية يساوي ظَهْرين أو ثلاثة أو أربعة. حتى بتُّ أجرّ خصيتيّ الكبيرتين خلفي كجِداء مسمومة. وجاء اليوم الذي سأكون فيه بمفردي مع تلك الشحاذة الفاسقة في بيت خالٍ ونظيف: كانت طَرقات قبضتها قويّة كالعادة على حديد البوّابة، حين رأيت وجهها الماكر منصوباً فوق رقبة مثالية للذبح، ونهدين جديرين بأسنان ذئب. وضحة. وهرعتُ إلى

الثلاجة، كي أُخرج لها وجبة اللحم بأكملها، فقد كان اختصاصها تسول لحم الهبرة. كانت خطواتها قصيرة وبطيئة، وهي تجتاز البوّابة التي وقفتُ بعيداً عنها أمتاراً أربعة، ماداً كيس اللحم بيدي، بما يشبه الطُّعْم. نظرات جامدة كأنها مثبتة بالمسامير، وشفتان جافتان كأنما رُشَّتا بالتراب، وذقن منتفخة كنهد طفلة. فاجأتني بابتسامة قصيرة، قلّبت بعدها عينيها، اللتين أكلتا جزءاً مهماً من وجهها، في شكل يوحي بالمحن والشهوة، وخطفت كيس اللحم من يدي. كنت أقف كالمعتوه، بعد هربها، بقضيبي الممدود أمامي كيد شحاذ أعمى، قزماً تحت ظلال الأشجار النفطية السوداء، والأقمار العمياء والعاهات، والعيون المنتوفة الأهداب بملاقط معدنية. كنت أشم رائحة منعشة لتيوس حليقة، رائحة طازجة لفرج عذراء. وفي الحمّام، منيّي يتطاير في كل مكان، داخلاً خارجاً من جسدي البدين مع كل شهيق وزفير، والنهود ترتفع كالبالونات وتنفجر في رأسي. نهد مفلوق كالرمان، نهد متشقق كتربة مالحة، نهد من كاوتشوك أبيض، نهد من حليب متخثر، نهد يُكسَر كالصحن، نهد يُركَل بالأرجل، نهد معلوف كالنعجة. بعد ذلك لن أرى وضحة إلا في منامات الاستحلام التي ملأت ثيابي وفراشي برائحة الأسماك.

حكايات عن حبلها وبطنها المنتفخ وهروبها. حكايات عن ذبحها بالخناجر والسكاكين من الوريد إلى الوريد. حكايات عن عشاقها الجدد، وأصحابها الجدد، وزبائنها الجدد. ونحن نأكل ونشرب وننام ونتقيأ ونملأ الحمّامات برازاً وبولاً ودوداً في هذه المدينة العجيبة. كلاب مشنوقة بأسلاك نحاسية، قطط تُرشّ بزيت الكاز قبل أن تتفرقع كالديناميت، أولاد من دون ثياب داخلية، حمير تُناك بأيور كبيرة وعصي مكانس وأعلام، صراصير ثقيلة كالجرذان، قمل بحجم القبضات، أنوف تزرب مخاطاً ودماً، مؤخرات مليئة بالنمش والطعام. لكن بيتنا كان نظيفاً بشكل يدعو إلى الأسف. كان للتشققات في بلاط الأرض رائحة الصابون، وكانت جورة الحمّام بلون أسناننا الصغيرة، والوسائد منفوخة بقطع الملابس القديمة والنظيفة. طوال حياتها لم تجد أمي منبعاً للفخر والتشاوف أفضل من نظافتها، ورتبة أخيها العسكرية. كنت لذلك أكره تلك النظافة، وكنت أتمنى، على نحو عدائي وشرير، تجريد أمي مما تفخر به. لكن يوم الجمعة من كل أسبوع كان يوماً كئيباً بسبب رائحة غلي الثياب الداخلية، وقرقعة الغسالة الكبيرة اللتين تنزعاننا من فرشتنا صباح كل عطلة. وكم كنت أنبذ أمي حين أنهض حانقاً فأجدها منكبة

على عصر الغسيل بيديها القويتين، عاقدة رأسها بمنديل ممزق كي تمنع البخار عنه. وكم تخيلت العرق يملأ حمّالتَي صدرها، وينقع رجليها المتورّمتين بسبب الدوالي. كذا رائحة الشوندر المغلي الكريهة التي كانت تملأ غرف بيتنا في ليالي الشتاء. طوال عمري لم يعلق في مخيلتي أسوأ من هاتين الرائحتين المغليتين: الغسيل والشوندر. لكن أعضائي الصغيرة كانت تشتعل بالرغبة كلما دخلت بيوت جيراننا القذرة، وتنشقت رائحة الماعز في وسائدهم وثيابهم وفَرشهم. ولم أستطع، رغم محاولتي الصادقة، مشاركتهم فطورهم مرة واحدة. كانت أطباق الألمنيوم التي يستخدمونها في الطعام موحية، على نحو يبعث الشك، بقشرة الشعر وإفرازاته. وكانت مكعبات الجبنة صفراء كثيابهم الداخلية. كنت أتخيل البيض المسلوق عندهم مغلياً في البول. يع ء. وكم كنت مبدئياً حين تخيلت صديقي الأعرج معزاةً يوم قام أبوه بتعليقه في شجرة الكينا العوجاء. المعزاة بنت حرام خانت الست سارة، والعنكبوت بنت حلال ساعدت الست سارة. هي ذي الأسطوانة المملّة لشيخة درزية زارتنا في الشدادي، واحتلت غرفة التلفزيون طوال أربعة أيام. لذلك أكره العنكبوت وأكره الكائنات النموذجية،

وأفضّل الماعز. كان في استطاعة هذا الأعرج المعلّق في الشجرة تحريك أذنيه كالماعز، وكان ركضه، بسبب تشوّه في رجله اليمنى، قفزاً كالماعز. لكنه كان لصاً مثالياً للبندق. لم يكن البندق ضمن لوائح التموين التي تقوم شركة النفط بتوزيعها علينا، وكنت من الذين دارت نصف أحلام طفولتهم حول البندق دون أن يملكوا النقود ليشتروه، أو الشجاعة ليسرقوه. حتى أني استخدمته، ويا للعار، في وصف عيَنيْ حبيبتي. الأعرج الصغير كان يدخل دكان «المثنّى» كل يوم، ويسرق حبات البندق البنية الداكنة ببراعة ابن عرس. مهمّتك أن تغطيني من الخلف، يقول لي. فأرفض، متمنياً أن يُقبَض عليه. كان الدكان يعجّ بالبضائع المنتهية الصلاحية والنساء المحجّبات والمنقّبات وأصحاب اللحى السوداء وصبية يمسحون أنوفهم بأكمامهم عندما كززتُ على أسناني، ونظرت إلى الهدف بقسوة: صندوق بلاستيكي واسع وشفاف، يمتد على طول منضدة البائع المستطيلة، مقسم مربعات صغيرة متساوية، في كل منها نوع واحد من المكسرات والحلوى. صناديق مربعة من الفستق الحلبي، والقضامة المملّحة، واللوز المفروك، والذرة المحمّصة، وبزر ميّال الشمس، وبزر البطيخ الأبيض، والتين المجفف،

والزبيب الأشقر الخالي من البذور، والجوز الكبير والمقشر، والبندق. مرة أخرى سرّحتُ نظري في باقي أرجاء الدكان، لحظتها اقتنعت أن اللص فعلاً بحاجة لمن يغطيه في الخلف، ثم نظرت إلى الهدف من جديد، بعينين مزمومتين هذه المرة كأني أنظر إلى لمبة كبيرة، وهجمتُ. في اللحظة الأولى انصبّ تركيزي على سماع الأصوات الخافتة، واكتشاف دلالاتها، حتى أني كنت على وشك تنفيذ العملية بعينين مغمضتين. فجأة، ضربتني موجة من الرعب بسبب تفكيري في احتمال أن يسألني البائع عن طلبي، وأنا لا أحمل قرشاً واحداً في جيبي. قمت بجردة سريعة في ذهني عن الأشياء التي لا يمكن هذا الدكان احتواؤها، لكني فشلت. كان الدكان واسعاً ومليئاً بكل ما يخطر على بال لص مبتدئ. أحسست بتصلب في فخذيّ، وارتخاء في أصابعي، وانقلبت أذناي إلى الداخل، ورحت أسمع دقات قلبي تقرع كطبول عملاقة: ضربات تدق في جرن صدري كهاون ثقيل. ولم أستطع السيطرة على معدتي حتى فكرت في ألوان الباستِل. نعم. ألوان الباستِل. لكني سرعان ما اقتنعت بغباء هذه الفكرة. وبينما كنت على وشك تسليم نفسي والاعتراف بكل شيء، كانت أصابع يدي قد غاصت عميقاً جداً في صندوق

البندق، ولا أعرف سبباً لكل هذا العمق، وكان البائع ينظر إليّ غير مصدق ما يرى. قال: قف مكانك، فوقفتُ. قال: أخرجها من جيبك، ففعلت. قال: كلب ابن كلب، وأحسست الهواء يتحول إلى أيدٍ وقبضات وأحذية. ضربني بيديه ورجليه وأضراسه، ونزع حزامه الجلدي، وفي هذه الأثناء سمعت أحدهم يقول: حرام! حين ساطني الحزام الجلدي على ظهري شددتُ على عينيّ بأصابعي كأني أحتمي من أضواء النيونات في السقف. كانت قوية ومبهرة. وكنت كلما أوجعني الضرب أكثر ازداد ضيقي بأضواء النيونات. نعم. فكرت بالأضواء ونسيت الضربات. كانت الكهرباء في مدينتنا المجانية قوية ومرعبة لأنها موصولة بكهرباء الحفّارات العملاقة، وكنت أتخيل أنها مليئة بالجنس: كانت اللمبات كبطون الحَبَالى، غالباً ما تنفجر بسبب قوة الكهرباء. وكنا في الشتاء نبيع المازوت الممنوح لنا، ونستعمل سخّانات ومدافئ كهربائية يصنعها أبي بنفسه. كانت حرارتها مثيرة حين تتوهج كأنها على وشك الانفجار، وكنت أتخيل أنها تمتص البصر. ببلاش. ببلاش. ببلاش. الماء، والكهرباء، والمازوت، والناس. وكانت أمي، ككل جاراتها، تُبقي حنفية المياه مفتوحة في الحمّام طوال اليوم، وتقول: ببلاش.

وأضواء المصابيح مشتعلة طوال الليل، وتقول: ببلاش. كان النهب هاجس أهل مدينتنا. لذا تعودنا النوم والضوء مشتعل، ولذلك عندما دخلتُ السجن كان عزائي إبقاء الضوء مشتعلاً أثناء الليل. جاء العفو بعد شهر ونصف الشهر، وجننتُ من الفرحة. نعم. أعترف أني جننتُ من الفرحة. صحيح. لقد اشتهيتُ الهتاف باسم البعث، وباسم حافظ الأسد. وقفتُ كالمجنون على باب السجن واضعاً يدي في بنطلوني، أهرش عانتي، وأقول إنه القمل. وكم كان الألم لذيذاً حين بالغلط لمستُ قضيبي فانتفض كالحصان، وراح يجرني خلفه كما لو أني عربة. صرت أركض خلفه، ويدي تمسك في خناقه. ولا أدري كيف أصبحت خلال لحظات بين أشجار الصنوبر البري، ولا كيف تخيلتُ تلك المرأة السمراء كقهوة جدي، وهي تدير قفاها لي. كان ظهرها رخواً ومصقولاً كلوح صابون يذوب تحت الشمس، وكانت مؤخرتها سليمة كالبيض وساخنة كالحليب، وفخذاها. رأيت فرجها ملموماً بين ردفيها كبرعم غير متفتح. كان منتوفاً بعناية وحذر. كانت رائحته شبيهة برائحة نشارة الخشب. أسرَع، باعدت بين فخذيها، فأحسستُ العرق والحرارة. أسرع، إنها تتأوّه، وشعرها يسيل كزبدة سوداء. أحسست المني خارجاً من

نخاعي الشوكي، وأحسست أنه لن يتوقف، وأحسست أني نبع. أسرع، مقدمة جزمتي تزداد لمعاناً. ها... لماذا شكرتُهم؟ صحيح. لقد شكرتهم. أعترف. لكنني شعرتُ بالامتنان في تلك اللحظة. شعرت بالامتنان، ولا أعرف لماذا بكيت عندما قالوا: أتاكم العفو. بكيت كما لو أني مذنب، وشكرتهم. شعرتُ أني حشرة نالت جائزة لا تستحقها. شعرت أني حثالة وابن شرموطة، كما قالوا لي. طيّب. سأعيد ترتيب الحكاية من جديد. وسأبدأ من هنا. لحظة وصفوني بالحثالة، وشتموا أمي. كنت أقف في طابور مجندين، أشبه بأنابيب من البراز، ملوَّحاً في شمس الظهيرة كخصية مسلوخة. بحر أخضر كالطحالب. عساكر أوباش وأقزام وزعران ودراويش نقترع بالدم. تلّة من الوجوه القميئة، والمصابة بالجدري والحصباء، ومن ذوي الأنوف الفطساء، والمشدودة كالقبضات، والمدماة، والملأى بحبوب عملاقة. مزبلة من الوجوه الفقيرة والمهرّجة، والمسحوب خيرها، والمفلولة الذكرى، والوجوه الطفيليات، والوجوه السرخس، والوجوه العثّ العملاق والقُرَاد والبعوض السكران والبرغش. غنم. غنم. وكنت أشم رائحة الصوف الأحمر، والعرق المتخثر. طوابير وصفوف ساعات وساعات

نلتمع بعَرَقنا تحت الشمس والغبار. بالروح والدم، نهتف. وليس ليد أو حنجرة الشعور بالتعب، وليس لشمس ظهيرة أن ترحم وجوه أشباح منهكين. نريد أن نثبت ولاءنا بالعرق والدم، كانوا يقولون لنا. وكنت غير راغب في إثبات شيء، أو قول شيء. كنت أقف غريباً وصامتاً على مقربة بعض الجنود الأكراد الحمر الوجوه كأكياس من الشرايين، يثرثرون بعربية مكسّرة، كما يليق بلغة يكرهونها. يقف الضابط حاملاً في يده دبوساً يثقب به الأصابع. «أجب بنعم أو لا: هل تنتخب الرفيق المناضل حافظ الأسد رئيساً للجمهورية العربية السورية»، هكذا انتخبنا بالدم فوق كلمة نعم. نعم. نعم. وذلك الدبوس اللعين يقفز من إصبع إلى أخرى. بصماتنا الحمراء فوق كلمة نعم شبيهة ببصمات الجاني في مسرح الجريمة: لأول مرة تكون يد الضحية هي الملطخة بالدم. أعترف أني لم أقترع بالدم خوفاً من الأيدز، وليس بسبب موقفي المبدئي. كنت أخاف ذلك الدبوس الذي اخترق مئات الأصابع قبل أن يصل إلى إصبعي. كنت أتخيله مليئاً بالأيدز. وكنت أتخيل الأيدز يتقاطر كالسمّ من تلك الأصابع المتورّمة. ولا أدري لمَ تذكرت السردين في تلك اللحظة، ومشعان. ذلك الولد التافه الذي أفسد عليّ حلمي الكبير: أن

أكون رئيساً للجمهورية العربية السورية. كنا يومها صبياناً قد قطّعنا حبالنا الصوتية بالهتاف في مدارسنا، «لا دراسة ولا تدريس بَدْنا ننتخب الرئيس»، عندما صارحني مشعان الهزيل والغرّ بأن حلمه هو أن يصبح رئيساً. في ما بعد سأكتشف أن جميع الصبية في سوريا كانوا يتشاركون الحلم نفسه، ولا يعلنونه: خوفاً لا خجلاً. كانت أحلام الأطفال السوريين هناك عبارة عن ذلك البلكون العالي الذي يطلّ منه السيد الرئيس كي يحيي الجماهير المؤلفة، الهاتفة بحياته ومجده. كان الجميع موهوباً بموهبة الرئاسة والسلطة، لكنهم يحتقرون المواهب. أعرف ذلك. الأوباش يسخرون منها. يا الله يا مخرجنا المسرحي زبّطلنا الكراسي على المنصة، قال الضابط لذلك الرقيب المجند الذي واظب، منذ بدء دورته العسكرية، على تذكيره أنه مخرج مسرحي عساه يجد له اختصاصاً مناسباً. يا الله يا مخرجنا المسرحي زبطلنا الكراسي... يا الله يا مخرجنا... يا الله... يا الله... الكراسي يا مخرجنا... أنا اضطررتُ إلى إخفاء دفتر أشعاري طوال فترة عسكريتي، خوفاً من تكليفي كتابة المدائح المطولة لدى كل مناسبة: صارت أشعاري سراً أتقاسمه وبعض رفاقي. كانت شمس حزيران مدهونة بالقار ظهر ذلك اليوم، وكانت

السماء مشطوفة من الغيوم والطيور عندما نادى عليّ ضابط الأمن، واستجوبني: هل أنت شاعر؟ لا، لا. إذاً صحيح ما وصلني، فأنت تتهرّب من امتداح السيد الرئيس في قصيدة. بعد ذلك، أربعمئة ليرة سورية ثمن فنجان قهوة. أنا أعرف أني أهذي الآن، وجننت. لكننا شعوب الكواليس. الشعوب التي عليها أن لا تُرى. وحين تكلف الظهور إلى العلن تقترع بدمائها. الحرب على الأبواب، كانوا يقولون. وكنا منهكين كفروج مليئة بالقيح. صور الرئيس في البيوت، صور الرئيس على الكراريس، صور الرئيس في الشوارع وفي الأحلام. الحرب على الأبواب، كانوا يقولون. وكنت أتمنى ذلك فقط كي أقتل ضابطاً شتم أختي، وآخر بصق عليّ، وآخر سرقني ورماني في السجن. أنا لم أحبب الحرب يوماً، لكني كنت محشواً بالثأر: كنت أتخيل أحواض الأسيد التي سأذوب أجسادهم فيها، وكرسي الكهرباء الذي سأصعق دماءهم به، والمنشار البشري الذي سأنشر أطرافهم بمسنناته، والعجّانة. كنت أتخيل أجسادهم المقطعة بالبلطات والسواطير، وأرى جراحهم أحواضَ سباحة، وأشم رائحة احتراق شعرهم، وأسمع خرير دمائهم الوقحة. لكني لم أحبب الحرب يوماً. وفي طفولتي لعبتُ بها ككل الأولاد. لعبت بها لأني أخافها:

كان عليّ تحويل الغول لعبةً كي أحبها. لذلك كنت أستغل غياب أبي لأركض حافياً، وفي يدي حديدة صدئة هي سيفي، وصبية حفاة وقذرون يحملون ما أحمل. كنت أشعر أني بطل ومغبون. كنت أحكي لرفاقي، غالباً من دون مناسبة، عن سلطان باشا الأطرش، وأقول إنه محارَب، كما كان أبي يقول دائماً. عندما أوقف التلفزيون السوري في الثمانينات بث كارتون غراندايزر، كان حزني أكثر مرارة من الآخرين. كان حزناً مشوباً بالغضب. كنت أريد أن أعرف السبب في التعتيم على هذا البطل الكارتوني، قبل أن يقول أخي الصغير: غراندايزر درزي! كنت كلما انتهيت من الحديث عن سلطان الأطرش أشرع في رسم العجّانة الآدمية للأولاد على شكل فرّامة يدوية عملاقة، واصفاً لهم صوت فرقعة العظام، وتكسر أضلاع القفص الصدري، وانهراس الغضاريف والهياكل العظمية والفقرات. كنت أركز على القول لهم إن هذه العجّانة تطحن العظم واللحم والخراء معاً. أهالي الجزيرة السورية عموماً مهووسون بحكاية العجانة البشرية التي كان يستعملها صدام حسين في فرم أجساد الفُرس والكرد والشيعة. ولطالما نقل تلفزيون العراق وقائع الحرب مع إيران في بث حي ومباشر كأنها مباراة في كرة القدم. كنا مشجّعي

حرب أشبه بمشجعي كرة قدم. العراق سيفوز، كنا نقول. وكانت الشاشة مستودعاً للجثث: جثة مهروسة الرأس، جثة ظاهرة الأحشاء، جثة من دون أطراف، جثة على شكل كتلة لحم بلا ملامح، يد متفحمة ووحيدة، ساق بحذاء لكن من دون فخذ، ونساء عراقيات يزغردن فوق القتلى وهن يخلعن الأساور تبرعاً لإتمام المشهد الثمين. حشود هائلة للدمار. مبانٍ مكومة كذبائح مبقورة البطون، مبانٍ لا تكفّ عن إبراز أحشائها من قضبان حديدية وأثاث مهشم، أعمدة إسمنتية تختلط بأقمشة الستائر الخارجية، صفائح زنك ممزقة، أعمدة كهرباء تبدو للوهلة الأولى كأنها قد اصطفت على جانبي الطريق في شكل سور ـ فقط ـ لمنع المباني المتداعية من الاندلاق على الطرق والمارة: صرنا بلا مخيلة تقريباً. كان التلفزيون العراقي يقول: الخمينيون الأعداء. وكنت أظن أن الخمينيين الأعداء هم غير هؤلاء الجنود القتلى الذين أشاهدهم على الشاشة. كنت أظن أن لهم ريشاً أسود، وعلى صدورهم المفاتيح. وكانت أمهاتنا إذا أردن إخافتنا، يقلن: أتاكم الخميني. حتى صار يأتينا في المنامات، حاملاً كيساً كبيراً على ظهره يجمع فيه الأولاد الأقزام. لكن الحرب سرعان ما كانت تصبح فكرة سخيفة، عندما يعود أبي إلى

البيت، ويصبح الفرسان والجنود مجرد أبطال تسلية كأبي زيد الهلالي والزير سالم. حتى جاءت اللحظة التي صارت فيها الحرب شأناً عائلياً. كانت الأيام أيام حرب في لبنان، حين عاد أبي من زيارة جدتي التي تموت في جبل الدروز، ليقول متأثراً: أعطتكم عمرها. فبكت أمي وقالت: الله يرحمك يا امرأة عمي، وكانت سعيدة في قرارة نفسها، لكنها قلقة على مصير أخيها في لبنان، ولا تجرؤ على سؤال أبي. كان خالي قائد إحدى الكتائب السورية التي هاجمت ميشال عون في بعبدا، وكنت لا أعرف من هو ميشال عون. كانوا يقولون: إنه عميل، ويقولون: إنه عدو، ويقولون: ماسوني. وكم كانت صدمتي كبيرة عندما سمعتُ أحد أقاربنا من اللبنانيين يقول إن عون رجل وطني، وكان دليله إلى ذلك أنه شاهده على التلفزيون يتغدّى علبتَي سردين، خاتماً الحكاية بالقول: تصوَّرْ! في البداية لم أهتم كثيراً للعلاقة بين الوطنية والسردين. لكني كنت وإخوتي نعتبر السردين وليمة فاخرة وبورجوازية. كنا كلما سمعنا ذلك اللبناني يروي تلك الحكاية ننسى ميشال عون ونفكر في السردين. صرنا إذا قالوا ميشال عون يسيل لعابنا. بعد ذلك رحنا نقيم المقارنات بين الوطنية السورية المعمّدة بالدم والعدو الصهيوني، والوطنية اللبنانية

التي تقوم على أكل السردين. صرنا كلما سمعنا شيئاً عن اللبنانيين نقول إنهم طَنْطات وجبناء. وكم تكون نشوتنا أكبر حين نسمع الإذاعة العراقية تقول: الاحتلال السوري للبنان. لكننا في سرّنا كنا نحلم بزيارة هذا البلد: كنا نحب لبنان، ونكره اللبنانيين. عندما شاركتُ في إحدى مسابقات الرسم المدرسية رسمت شجرة فيها خمسة عشر غصناً هي عدد المحافظات السورية مضافاً إليها لبنان: لم أرسم لواء اسكندرون أو الجولان، رسمت لبنان! لم يكن لبنان يوماً صورة حرب في مخيلتي، بل كان بلد غنى وعملاء. كان الكبار، حين يتحدثون عنه، يقولون: الخير والتهريب وسايكس بيكو. شيء شبيه بأميركا اليوم، العدو والحلم في آن. كانت الخدمة العسكرية في لبنان أقرب إلى التهمة: مَنْ يخدم هناك يغنَ. لذا كانت أمي تحكي عن نزاهة خالي قبل أن تبدأ الحديث عن بطولاته. وعندما نسألها عن حال الترف التي يحياها، تقول إنه يقبض راتبين بسبب خدمته خارج الحدود. لم تكن الحرب اللبنانية بالنسبة إلينا حرباً، إنما احتراب، أو قتال سينمائي. الحرب التي كانت في أذهاننا هي الحرب النظامية. حرب الدول التي يتلاقى فيها الجيشان. كان الذي يجعل من الحرب اللبنانية حرباً ناقصة على الدوام هو شعر

الخنافس، أو غياب الخوذ. كنا نرى مقاتلين، في حين كنا نرغب رؤية جنود. إذاً، بكت أمي، وقالت: الله يرحمك يا امرأة عمي. وكانت سعيدة في قرارة نفسها. ثم تجرأت وسألت أبي عن أخيها، فجاء جوابه أشبه بالانتقام من تمثيليتها هذه: إصابته ليست قاتلة. قال ذلك في قسوة لامعة. هكذا استطعنا أن نرى بكاء وندباً حقيقيَّيْن: امرأة مجنونة، مزقت فستانها من الأعلى، بحيث رأينا تهدل نهديها المليئين بالعروق الخضراء، تركع عند قدمَي رجل ضخم ترجوه قول الحقيقة. قالت: كنتُ متأكدة، وقالت: حلمتُ به، وقالت: إنه بطل. لكن إصابة خالي حقاً لم تكن قاتلة، جاءت في كتفه. كان أبي يريد فضح تمثيلية حزنها على جدتي. كان يريد أن يقول لها: هكذا يكون الحزن. لكن خالي مات بعد ذلك بالسرطان. وعندما مات كانت جدتي تندب سيارته قائلة إنها لن تمر بعد اليوم من أمام بيتها. كانت تقول إنها تشبه العروس في بياضها، وإنها كالفرس في خفّتها، وإن مراياها سحرية. حكت جدتي عن السيارة أكثر مما حكت عن خالي. لكنها عندما عادت وتحدثت عن الموت، نعتته بالجبان. جدتي قالت إن الموت لا يواجه كالفرسان، بل يطعن في الظهر. جدتي حاولت طوال أسابيع أن تثبت للناس أن الموت جبان، والناس ينهونها عن

ذلك، ويقولون لها إنه حق. كانوا يقولون لها: أنت امرأة مؤمنة. وكانوا يقولون: اصبري. ويقولون: حرام. لكن جدتي لم تكن تسمعهم، كانت مشغولة بالرؤية: كانت ترى الموت يأتي ولدها من خلف ظهره ويطعنه. كانت تراه يتقدم رويداً رويداً، وفي يده خنجر معقوف. جدتي قالت إن لسانها شُلّ في تلك اللحظة، وقالت إنها أرادت الصراخ كي ينتبه ولدها، وقالت إنها السبب. لكن أحداً لم يصدّقها. قالوا: جُنّت. كانت عيناها تسيلان ولا تلمعان، وزادها مرارةً أن السماء كانت تمطر طوال ذلك اليوم. جدتي دارت حول نفسها، وقالت إن السماء لا تستحي، وإن السماء وقحة، وقالت: يا حيف. كان صوت الندب يأتي ثقيلاً ورطباً من المزار، حيث اجتمعت النسوة حول الجثة للغناء لها: خالي عاد طفلاً صغيراً يُغنى له حتى ينام. عجائز وعجائز وعجائز. بحر من السواد المترهّل. بحر لا يجيد سوى المد. وليس من عطور سوى روائح الآباط والشعر السميك والأبيض. ونحن نخوّض ونخوّض كي نصل إلى التابوت. الأيدي مشدودة، والدموع كذلك. هجمت النسوة. ثم التابوت عالياً. وجدتي تقسم إنها ترى خالي في ثياب العرس، وتزغرد. قالت: إنه جميل كالفتيات، وقالت: غاضب كالعدالة، وقالت: شابووش.

حزن كالكذب، كالخيال. نساء يقرعن طناجر رؤوسهن بالأيدي، ونساء يندبن الموتى بأشعار سرقن نصف ألحانها من أغانٍ لفؤاد غازي وميّادة الحنّاوي. كان منظرهن فاتناً إلى الدرجة التي ذكّرتني بحفلات نتف السيقان والعانات التي كان يُسمح لي حضورها في طفولتي. في تلك القرى البازلتية اكتشفت أن الطفولة امتياز حواس لكل من ينوي أن يكون كاتباً في حياته: أن ترى قريباتك من الصبايا يخلعن ثيابهن أمامك دونما حرج، أو أن يتحدثن عن مغامراتهن الجنسية من دون اكتراث، أو أن يعبرن فوق رأسك وأنت مستلقٍ على ظهرك فترى في ظلام فساتينهن الساحر أشباحاً طرية وبيضاء. لكن الأشهى من ذلك كله أن تشهد لهن حفلة جماعية لتنظيف السيقان والعانات والآباط. كانت مواسم الأعراس على غاربها حين تسرّبت النساء فجأة، فلحقتُ بهن: علّيّة ساخنة كفرن، أو هكذا حسبتها، قفف من القش والنايلون الملون، دسوت نحاسية، أوعية تنك وحديد، دلاء جديدة، صينية ألمنيوم كبيرة، أعين منتفخة كالأثداء، عرق ينفجر كالفطر، أصابع مكسّرة الرؤوس كأقلام رصاص، أرغفة سيقان مشتعلة تزداد توهجاً، ونساء حين يصرخن يعصرن الهواء بأيديهن، وينظرن خلسة إلى عورات بعضهن. كن جالسات

في العلّيّة بعيون تنفد كساعات رملية، وسيقان حمراء منفرجة كالبيكار، يسلخن عجينة السكّر الصفراء عن أرجلهن السمينة ويصرخن. لكني كنت أشعر بهن مستمتعات: كن يصرخن ضاحكات. اليوم أستطيع تشبيه صراخهن بصراخ الرعشة ورهز الجماع. رأيت اللذة تخترق مسامهن الملتهبة، وعيونهن الدامعة، والمخدّات الرقيقة التي بركن عليها. كان منظر النسوة الندّابات شبيهاً بمنظرهن في العلّيّة يحيين حفلات نتف الأجساد. كانت جدتي، التي لا تملّ إخباري أمام الضيوف أني كنت في صغري لا أتبوّل إلا في طاسة الشرب، لا تفوّت يوم عزاء أو ليلة ندب. كان صوتها حنوناً وشجياً، واكتشفنا أنه مارتوني يوم وفاة خالي. حتى أن جدي، الذي ذهب صوته تماماً في ذلك اليوم، راح يحسدها على صمود صوتها، ويقول لها: نيّالِك. كان انهزام صوته أمام صوت جدتي في ذلك اليوم الحزين مأساة له ونكتة لنا. كان يظن أن ابنه الميت بسبب ذلك سيكون راضياً عن جدتي أكثر من رضاه عنه. لذا رأينا نوبات حزنه مضحكة كصوته المبحوح يومذاك. كان جدي (لأمّي) رجلاً مضحكاً، حتى في ساعات مأسوية كهذه. شكل منخريه الأحمقين، وحاجباه الطويلان، وشعرات شاربيه الغليظة كإبر الملاحف، ساعدته في أن يكون

شخصاً مضحكاً. لا يمكن مناسبة أن تمرّ من دون أن يكون هذا الرجل بطل نكاتها. كنت صبياً أزن المئة من الكيلوغرامات في موسم تدبيس العنب عندما اشتبك هذا المضحك مع زوجته وبناته لأنه قَبِلَ أن أطأ العنب بقدميّ المتسخَتين دون غسلهما: حبّات مستوية وفجّة من العنب السلطي الأبيض والأحمر تنفجر تحت قدميّ المسطّحتين كمكواة، والمليئتين بالتشققات والجلد الميت والأتربة الحمراء. كان العصير ينبع كالماء من تحت قدميّ اللتين سالت دماؤهما، وكانت يداي المرفوعتان قد منحتا جسدي شكل الصليب. أحسستُ أني المسيح. أحسست أني أمشي على الماء. أحسست بالمعجزة. أثناء ذلك كان جدي يغسل دماء قدميّ المقدستين بماء العصير خلسة، متحاشياً لفت أنظار النسوة الحانقات عليه. أنا المسيح. أنا المسيح. سأموت صغيراً قبل أن يكتشفني العالم، هكذا كنت أردْد في نفسي، ولا أرغب في مصارحة أحد. كان الموت هاجسي الدائم، وسرّي الشخصي والعزيز. لكن تلك البصّارة الحولاء ذات العينين المتأرجحتين ككفتَي ميزان، والتي تخيلتها محشوّة بالسراويل عندما رأيتها أول مرة، وتمنيتُ لو أنها تنفجر، أفسدت عليّ ذلك السرّ منذ زمن. تنحنحت

وقالت لأمي، كي تبتزها أكثر، إني سأموت صغيراً أو شاباً. كان الظلام غير واقعي في غرفتها، وكانت عيناها الفسفوريتان تضيئان المكان، وعندما أرادت أمي أن تدفع لها المال، صرختُ في وجهها وبكيت، وقلبت طاسة الماء الكبيرة، التي قرأت بها طالعي، في حضنها. لقد أفسدت عليّ تلك الدجّالة سرّي الكبير: الموت صغيراً. كنت أتلذذ بالتفكير أن الموت بجانبي. يرافقني، ويمشي قربي. كنت أخاف أن أطمئن. لذلك ربما منعت أمي أن تدفع لها المال من أجل إنقاذ حياتي. كان لديّ القدرة على اكتشاف خدعة الحلم، وكان إمساك الأفاعي الصغيرة في المنامات حلمي المفضّل. كنت أفعل في أحلامي كل ما خشيت فعله في اليقظة: أمدّ إبهامي وسبابتي إلى الأفعى، وأضغط بهما على عنقها الرفيع، وأنا أقول في نفسي: حلم حلم لن أموت لا أحد يموت في الحلم، حلم حلم لا أحد يموت... عندما كبرت صار الموت هاجسي الدائم. كان جدي الآخر الذي مات قبل أشهر يقول إن الموت يشبه الوسادة: أول الليل تحت عجيزة زوجتك، وآخر الليل تحت رأسك. كان جدي غامضاً في كلامه عن الموت. كأنه يداريه، أو يخدعه. كان جدي يسمي الموت باسمه، لكنه يقول إنه حق. كان يظن أن الموت سيكون راضياً

بهذا الوصف، معتبراً النظر إلى الوجه ضرباً من ضروب التلصص والحشرية. لذا لم يكن يستعمل المرآة أبداً: إنها للفضوليين فقط. كان جدي يداري الموت بأن لا يتلصص على أملاكه. كنت طفلاً عندما سألته عن السرّ في أنه يأكل قبلنا جميعاً، وعن معنى أن يمد يده أولاً. جدي ضحك وتجهم. جدي اتكأ على الحائط، وهرش معصمه بإبهامه. جدي حدجني بعينيه، وقال إنه يفعل ذلك مخافة أن يكون في الطعام سمّ، فيموت هو ويفدينا. كنت أعرف أن جدي يكذب، وأنه من الذين يسخرون من قصص الافتداء: لا يأكل الدروز في الموت مداراةً له واحتراماً لفقيدهم وليمته الكبيرة ذلك اليوم. الموت هو الأب الذي علينا احترامه، فلا نأكل حتى يفرغ من طعامه، ولا نمدّ أيدينا إلى المائدة قبل أن يقوم عنها. كنا نحمل نعش خالي ونسير نحو الخشخاشة. الغرفة التي يمدّد فيها الدروز موتاهم إلى الأبد، جاعلين وجوههم إلى أعلى، وظهورهم إلى التراب. التراب الذي لم يختلط يوماً بلحم الدروز وبدود بطونهم، والذي لم يذق منهم سوى الدم والعرق. باب الخشخاشة له مفتاحان: مفتاح يبقى مع أحد أبناء القرية، وآخر يبقى داخل الخشخاشة، تحسّباً لقيام الميت من موته، وربما أملاً في ذلك. هي مفاتيح الموتى التي

نبقيها داخل المقابر. المفاتيح التي لا تترك حجة للميت في عدم العودة. عندما ماتت حَبَقَة نعيم قالوا إنها وُجِدَت متكئة على باب الخشخاشة، وقالوا إنها قامت من موتها وحاولت الخروج، وقالوا إنهم لم يتركوا مفتاحاً لها في الداخل. من سمع بقصة هذه المرأة؟ حبقة نعيم؟ حين وصلتُ معسكر التدريب العسكري صاح أحدهم: حَبَقَة. فتجمع شبان الدروز حوله، وتعارفوا. شرموطة تصبح كلمة سرّ يتعارف بها أناس محافظون. لكن حبقة كانت امرأة عظيمة، لم يقدّرها أحد. امرأة حقيقية اجتمع الناس على مذمّتها. كانت تلبس الساعة في رجلها الناصعة البياض، والفتيان دائماً يسألونها عن الوقت، وبعد ذلك يرددون: الوقت من فضة. فعلت ذلك عندما انتشرت موضة، كانت آنذاك موضة، ساعة اليد. اشترت حَبَقَة ساعة يد، ولبستها في رجلها. فعلت ذلك نكاية بشباب ذلك الزمان الذين كانوا يشمرون عن أيديهم أمام الصبايا من أجل إظهار الساعة، كما يشمرون عنها عندما يريدون تنظيف الزبل من تحت الأبقار والعجول. كنت صغيراً عندما سمعت أحدهم يروي أنه صادف حبقة في متجر لبيع الألبسة. كنت أراقب حركات يديه، وهو يقول إنها اشترت سروالاً، وأشارت بإصبعها نحوه قائلة له: حاسبو. كنت

أراقب لسانه الذي يكذب وهو يقول إنه حاسبه، ودفع ثمن السروال. كان الجميع يكذبون، ويؤلفون القصص والحكايا حولها. وحبقة لا تهتم إلى ذلك كله، لأنها لا تسمعهم: أبطال الحكايا لا يملكون آذاناً. لسان حبقة نعيم لَعَقَ جسدها بأكمله، ولعق حكايتها أيضاً. لم تكن حبقة مطربة كأسمهان، لكنها عاشت حياة الفنانين. أصلاً، لم يكن الفن هو ما يشغل الدروز في أسمهان، إنما المرأة المارقة التي تكسر العادات والتقاليد مثلما تكسر صحناً أو كأساً تغسله. كانت حبقة أسمهاناً محلّية، احتفظ بها دروز الجبل لأنفسهم. خافوا عليها من العالمية. خافوا أن يخسروها. لذلك كانوا يقولون همساً إن صوتها جميل، وإنها مطربة، لكنها لم تحترف الفن. حبقة نعيم لم تكن مومساً أجيرة أيضاً، أو بائعة هوى. بل كانت مومس نفسها، تعشق وتصاحب. لذلك كانوا يدافعون عنها فيقولون: إنها فاجرة. كانت لساناً طويلاً على شكل منجنيق، يقول الكلمة كما يرشق الحجر. كانت كلماتها تفجّ وتدمي. لم يكن يعجبها كل ذلك التهذيب في كلام الدروز: لا كلمة طَرَف، التي تعني الطيز، تروق لها. ولا كلمة عزيزي، التي تعني الأير. حبقة كانت تسمّي الأشياء بأسمائها. لذا كانت رائحتها وسمعتها السيئتان تخرجان من لسانها مع كلامها

الفلتان وفوطتها الرخوة على كتفيها. لكن كلمة فوطة لا بد أن تكون أعجبتها: اسم منديل الرأس الخاص بنساء الدروز. كم كنا نتندر ونتهتّك في ترديد تلك الكلمة، فوطة فوطة، وتلك الأغنية الجبلية التي تغنيها النسوة في الأعراس: «هيه هيه يا أم الفوطه على كتافك محطوطه». كنا نتخيل فوط النساء الصحية على أكتافهن، ونتخيل بقع الدماء والبول، قبل أن ننصرف لحَلْب أيورنا الصغيرة في الزرائب والكروم والبرك. عندما ذكرتُ هذه الكلمة في اتصال هاتفي مع أمي راح رفاقي يتهامسون عليّ مستغربين وقاحتي في الحديث مع أمي عن فوطتها. لا بد أن حبقة نعيم كانت تحب هذه الكلمة. جدي هو الذي حدثني بذلك، وهو من علّمني أن أروي عن تلك البلاد السرية، وتلك الجبال التي شابهت أثداء أمهاتنا في ضخامتها. الجبال التي غرّرت بنا فصدقنا أن الموت يعني ولادة جديدة وجسداً جديداً وأهلاً جدداً، وأن الجسد قميص يهترئ ونتمسك به. كان جدي يقول إن الموت ليس عيداً كي نفرح بثيابه الجديدة. عندما وصلنا إلى الخشخاشة، حاملين جثة خالي، وفتحنا بابها، ملأت أنوفنا وصدورنا رائحة كريهة. رائحة أجساد متفسخة. رائحة أحبائنا الذين ماتوا. ولا أدري لمَ فكرت يومها بأنها رائحة

إبط. نعم. قلت إنها رائحة إبط، وشممت إبطيّ. ربما بسبب العويل والندب. ربما بسبب الكلمات المجنونة التي لا معنى لها، كأن تقول امرأة: مع السلامة، أو سلّم على فلان، أو ناطرينك. ربما بسبب تدافع الرجال لوضع الجثة داخل الخشخاشة: شهامة تستدعي الرثاء في تفجعها. رفوف من الأموات العائدين، والأرواح السيّارة، والأكفان المستعمَلة، والجثث المهروشة، والقبور المنبوشة، والتوابيت التي أكلها التسوس، وأكياس العظام، والغربان. موت الآخرين هناك مناسبة لاستعادة أمواتنا من الذاكرة، ولعودتهم أحياء. نبكيهم كما لو أنهم ماتوا البارحة، كما لو أنهم يموتون الآن، كما لو أنهم غداً. بسطاء يتدبرون موتهم بأنفسهم، فيموتون مشغولي البال على الأعمال التي تركوها ناقصة، والبقرات اللاتي لم يُحلَبن، والنساء اللاتي سينمن وحيدات هذه الليلة. وكل من يصبح على فراش الموت عليه أن يروي: عليه إخراج جميع الوجوه القديمة والمكدسة من ذاكرته لينفض غبارها عنها، ويعتذر منها وجهاً وجهاً، أو يعاتبها وجهاً وجهاً: فقط كي يؤخر رحيله. في كل موت نجرب عيوننا بالنظر إلى أسفل، وأقدامنا بالركوع والسجود، وشفاهنا بقول المراثي، وجفوننا بالاحمرار. نستعمل الدموع نفسها، والكلمات

نفسها: الله يرحمو، الله يرحمو. كأنها صَبْحَكْ بالخير، أو شْلونك. نقولها كي نتأسف على ذلك لاحقاً، ونؤكد لأنفسنا أننا بخير. كان جدي مولعاً بالسخرية من الذين يموتون، حتى أني فكرت أنه يشمت بهم. وعندما شن الأميركيون حربهم في أفغانستان كان يمزح قائلاً: عزرابيل بعيد عني ومشغول. كان جدي في سرّه يعشق فكرة العمر المديد، وحقيقة أنه عاش طويلاً. لذلك كان يشمت بالذين يموتون شباباً، وبالفلسطينيين. ولد جدي قبل ستة أشهر من موت والدته، وقبل أحد عشر عاماً من سفره مشياً على الأقدام إلى فلسطين، هرباً من ظلم زوجة أبيه. جدي قال إن الفلسطينيين ضربوه بأيديهم وأرجلهم عندما علموا أنه درزي. جدي رفع يديه إلى السماء، وقال إنهم شحطوه من رجليه، ومرغوا وجهه في التراب، وهم يصيحون في ابتهاج: درزي قيق، درزي قيق. جدي مسح دمعتين كبيرتين في عينيه، وتوقف عن الكلام فجأة. كان هذا العجوز الأدرد دائم التشكيك في النوايا الإلهية، وكان دليله الكبير إلى ذلك مرتبطاً بالصراع العربي الإسرائيلي: لو لم يقرر الله في آخر لحظة افتداء ولد إبراهيم، سواء أكان إسحاق جد اليهود أو إسماعيل جد العرب، وإنقاذه من تحت سكين أبيه، لكان موت هذا الولد

كفيلاً بوأد الصراع بين اليهود والعرب منذ ذلك الزمان. كان وجه جدي ساخراً حين يسأل في خبث: لمَ قرر الله إنقاذ ولد إبراهيم في اللحظة الأخيرة! هذه واحدة، كان يقول، ضارباً لنا مثالاً آخر عن سوء النوايا الإلهية: لو لم يفضّل الله قربان هابيل المنتخب من لحم الضأن، على القربان النباتي لقايين، هل كان ليقتل أحدهما الآخر؟ ثم لمَ لا يكون الله نباتياً في طعامه؟ وهل أدرك قايين أن الربّ لاحم، حتى يزايد في قربانه اللحميّ فيذبح أخاه؟ كنت في التاسعة، أو في العاشرة من عمري عندما سألني أحد أصدقائي في المدرسة لمَ لا نأكل الملوخية! صديقي قال إن أباه أوصاه أن لا يناديني «أخي» لأني كافر، وإن الدروز لا يأكلون الملوخية لأن العجل تزحلق بها، وإن الدروز يعبدون العجل. كنت أستمع إليه محاولاً أن أتذكر شكل العجل الأحمر الصغير في زريبة دار جدي. رحت أتخيل جدي راكعاً أمام العجل الأحمر يعبده، وأتخيل شكل الملوخية. عندما أخبرت أبي بذلك، صار يغلي ويفور كقدر نحاس على النار، ويقول إنهم أوغاد. بينما كانت عينا جدي منشورتين كجوربين أسودين في المطر. ليت هذا العجل يتزحلق برغيف خبز فنموت جوعاً ونرتاح. قال وضحك. لكنه كان مبدئياً. لقد سمعت أحدهم يقول إن جدي

رجل مبدئي. وشرح ذلك بالقول إنه ترك حزب البعث عندما انحرف عن مبادئه. لا أدري يومها لمَ صُعقتُ لدى سماعي ذلك، وكأني أسمع تهمة شنيعة في حقه. ولم يمضِ وقت طويل حتى حكى لنا جدي حادثة فقدانه هويته، أي بطاقته الشخصية، حين كان ضياع الهوية في سوريا يستوجب تحقيقاً في الفروع الأمنية: هل أنت بعثي؟ نعم، منذ عام ١٩٦٣. وهلّق شو؟ هلّق أنا مضيّع هويتي. جدي روى هذه الحكاية، وسعل كأنه يضحك. جدي أشار إلى الخوذة المعدنية التي تحولت أصيص ورد، وافترش درجة واطئة. جدي قال إن بلادنا لها قلب بازلتي لا يتسع لموتانا، لذلك نودعهم الخشخاشة. وحضر مشهد الخشخاشة من جديد أمام عينيّ، وعادت رائحة الغسيل والشوندر تتكثف في صدري. أحسستُ أن رئتيّ تحولتا قنينتَيْ غاز. انفجرتُ. ورأيت الغسيل المرعب منشوراً أمامي على طول الأفق: كلاسين نسائية عملاقة، حمّالات صدور بعيون كبيرة كالطناجر، جوارب لحمية شفافة وممزقة، خرق سمراء سميكة تُستعمل كفوط صحية. هنا هجمت الكوابيس عليّ دفعة واحدة، مزقتني بمخالبها، ولاكتني أسنانُها: آباء وأبناء يتبادلون الطعنات بالسكاكين، والضربات بالعصي، والشتائم

بالضراط. وأنا أمتطي حصاناً من كل الألوان مكسور القوائم، وأحمل سيفاً كبيراً ألوح به بكلتا يديّ، وأصيح: الويل لأبي، الويل لأبي. أنا في الحقيقة لم أفهم تماماً مبدئية جدي الحزبية، مثلما لم أفهم يوماً بعثية أبي. كان على أبي أن يكون بعثياً، وكان عليّ أن أكون ابنه، وأن أعيش رعب ذلك، وأن أغصّ. أن أكون ابناً لرجل بعثي يعني أن أحيا طفولة مختلفة، ويعني أن أشرق في البكاء كلما استطعت، ويعني أن أقود انقلاباً عليه، وأخونه عندما أكبر. سيل من القبضات المربعة، والوجوه المفقوءة، والأصابع الغليظة، والأحذية المتيبّسة، والأطفال المخبولين، والآباء المجانين والبعثيين. أن أكون ابناً لرجل بعثي يعني أن أتذكر ذلك المجند الكردي الذي وشم اسم حافظ الأسد على ظهره لمنع الضابط المسؤول من ضربه بالكرباج. في البداية وشم ظهره. بعد ذلك صدره، ثم يديه ورجليه. لم يكن لدينا ما نشمه على ظهورنا وأجسادنا عندما كنا أطفالاً. كانت يد أبي مطلقة. كانت بعثنا المنزلي. لكني لم أعِ كلمة بعث إلا عندما سافر أبي فترة، لا أذكر زمنها، إلى العاصمة لحضور دورة مركزية للحزب، كما كانت أمي تقول للجيران. كانت تقول ذلك في فخر عظيم، وتنتصب في جلوسها كالكرسي، قبل أن تتابع: إنه أمين تنظيم. كنا أطفالاً،

وحدث أن سألتُ أمي عن معنى هذه الكلمة. لكنها تأتأت كثيراً وقليلاً، وحركت رقبتها كما تفعل دائماً حين لا تملك الإجابة، ثم قالت: يعني الحزب. وعندما سألتها عن معنى أمين تنظيم انفرجت أساريرها، وأجابت على الفور: يعني مسؤول. كانت ببغاء ذهبياً. كم كنت أفرح كلما فكرتُ أن والدي مسؤول. كنت أسمع الحكايات عن أولاد المسؤولين، فقد كانوا أقوياء ومحظوظين. كنت أريد أن أكون قوياً ومحظوظاً. كنت أكره تلك الكلمة التي واظبت معلمتي على كتابتها دائماً أسفل استمارة علاماتي: خجول جداً. كنت أكره هذا الخجل، وأحتقر نفسي لذلك. لذا لم أكن أصدق أن أبي مسؤول حقاً، خصوصاً أنه لا يملك سيارة. بعد ذلك سأكتشف أن أمي تكذب، وأن الضعفاء يصطنعون الهيبة، على مثال ما يصطنع القوي التواضع. كان اسمنا في المدرسة «طلائع البعث». صحيح. لكني لم أنتبه إلى هذه الكلمة من قبل. أقسم. يد أبي كانت السبب. كنا نرى العالم من خلف هذه اليد الضخمة التي تضربنا بلا هوادة. يد أبي التي حجبت العالم عنا أصبحت حدود عالمنا الصغير والبائس. كنتُ كلما نام أبي بعد الظهر أختلس النظر لأرى يده فوق اللحاف. أختلس النظر إليها وأعرف أنها لا

تنام. وكان إذا صدر منا صوت أزعجه أثناء نومه، يصيح بنا جميعاً فنأتي إليه مطأطئين رؤوسنا إلى مستوى يده، ولا نرفع وجوهنا حتى يفرغ من ضربنا، أو يملّ. كانت الكدمات الزرقاء بصمات يده على وجوهنا... واليد التي كانت ترفع أختي من شعرها وترميها على الأرض، هي اليد التي جعلت أخي حبيس غرفته لسنوات، وهي التي جعلتني أتخيل البعث شبيهاً بأبي. كانوا إذا قالوا: بعث، تخيلته بشاربين، ويد كبيرة. وبينما كان الأولاد يتحدثون عن اختلاس النقود من جيوب آبائهم، كنت أتحدث عن اختلاس النظر إلى يد أبي أثناء نومه. كنت أصف لهم كيف كانت يده ترتفع وتنخفض مع كل شهيق وزفير. كنت أقول لهم إنها البحر، وإنها المد والجزر، وأمثّل ذلك بكلتا يديّ. كنت أشرح لهم وظيفة الإبهام في تسديد اللكمات إلى الوجه، وأهمية السبابة في ضربة الكف. بعد ذلك، سيبدأ الأولاد بعقد الجلسات للحديث عن أيدي آبائهم الحديدية. سيقولون إنها شريرة. ويقولون إنها خنازير صغيرة. ويقولون إنهم سيثأرون، كما كنت أقول دائماً. كان أبي في المرحاض حين كسر أخي شيئاً، لم أعد أذكر ما هو، فخرج مسرعاً وأوسعه ضرباً على وجهه وظهره وقدميه، ثم عاد كي يتابع قضاء حاجته. أخي راح يبكي ويقول لأمي: في

المرة المقبلة قولي له أن يغسل يده قبل أن يضربني. أثناء ذلك، كنا نتخيل رائحة تلك اليد، ونتخيل قطع براز طبيخ البندورة والسبانخ على وجه أخي، ونقاط البول المركّز بين أسنانه. وكثرت أحلام اليقظة لديّ: أبي يريد ضرب أمي فأكسر يده بمطرقة كبيرة. أبي يحمل أختي من شعرها فأهجم عليه وأعضه من معصم يده. أبي نائم، ويده من فوق اللحاف، أرشّ عليها زيت الكاز وأشعلها. لكني في أحلام الليل: أبي يضرب أمي، فأهرب. أبي يحمل أختي من شعرها، فأهرب. يد أبي فوق اللحاف، فأهرب. جبان. جبان. جبان. كنت طالباً عندما اعتليتُ المنبر أول مرة، ولم يصفق لي أحد، فارتبكتُ. كان أبي بين الحاضرين، وكان يكفي لكي يشتعل التصفيق أن يضرب كفاً على كف. لكنه عوض ذلك وبخني عندما رجعتُ إلى البيت، وقال لي: جبان. وصدقت أني جبان. أنا في الحقيقة ظننت أنهم سيصفقون لي بمجرد أن ينطق عريف الحفل اسمي. لكنهم لم يفعلوا. كنت أصعد الدرج إلى المنصة سامعاً خطوات أقدامي على الخشب طبولاً تقرع في أذنيّ. بم. بم. بم. حاولت إبطاء الخطى. بم. بم. بم. توقفتُ قليلاً. بم. بم. بم. حاولتُ الإسراع. بم. بم. بم. وقعتُ. بم. بم. بم. أحسست انفصاماً بين خطواتي

وصوتها. فكرت أني نسيت ارتداء جواربي. فكرت أني ارتديت جوربين من لونين مختلفين، وأن بنطلوني قد عصي في شقّ مؤخرتي. فكرت أنه قُضي عليّ. عندما وصلت المنبر، فتحت ورقة القصيدة على مصراعيها كبوابة عتيقة، وألقيت نظرة على الجمهور فرأيت أبي، ولم أرَ سواه: كان يقف، رغم وجود مقاعد شاغرة، عاقداً يديه على صدره، وحاجبيه على جبينه. كان شعره متماسكاً كالشوك، وعيناه يابستين كالكلس، ويده... كانت اليد التي تأكل بشراهة كما تضرب بشراهة. كان الرغيف أشبه بالفريسة بين أصابعها. كانت تغرف المَرَق بالخبز كما لو أنها رفش. كنا نراقب ذلك فنجوع. وحين سمعنا بالمنجنيق أشرنا إلى يد أبي. كانت طريقته في الأكل أقرب إلى الجنس وركوب النساء. كانت عيناه تلمعان كالفولاذ الساخن حين يأكل، ونشم رائحة إبطيه وشعره. بعد ذلك، كان علينا تقبيل هذه اليد عندما يأتي صاحبها من سفر، وفي الأعياد. هذه اليد التي ملأها الشعر الأسود سحراً وسطوة. كنت عندما أقبّلها أحس أن الشعر دخل في فمي، وعلق بين أسناني. كنت أقبل يده بفم مزموم حابساً نَفَسي كأني على وشك الغطس. كنت كلما انحنيت لتقبيل يده أشعر بالغرق. وكان شعوراً غريباً ومفعماً عندما

قالت لي إحدى عماتي إن يدي شبيهة بيد أبي. كانت يده كبيرة جداً، وكنا أقزاماً أمامها. كانت اليد التي لا تنام، ولا تدعنا ننام. وكنت أكره الله والدين، لكنه حدث ذات يوم أني قرأت في كتاب المدرسة أن المسلمين يقطعون يد السارق. في البداية ارتعبتُ. لكنني حين تخيلتُ أبي من دون يد فرحتُ، وأخبرتُ إخوتي. ورحنا نتخيل يد أبي ممدودة على الطاولة، والفأس فوقها. الفأس مشدودة إلى السماء بحبل مقدس. الفأس مسنونة، ولعابها محرق كالكحول. الفأس تنقضّ كالصقر. لا. كالفأس. عليها أن تكون فأساً حادة. عليها أن تكون بلا قلب كيده. ضربة واحدة، ويصبح أبي بلا يد. آه كم كان الخيال مريحاً. لكن أبي لم يكن سارقاً، لذلك كان حزننا كبيراً. نحن اعتبرنا أبي سارقاً حين رأيناه يأتي بالبراويز من شركة النفط التي يعمل فيها. فقد شاعت هناك عادة بَرْوزة صور الرئيس وأولاده لمن يريد بالمجان، وقد كان أبي، ككل الناس هناك، يأخذ صورة بين فترة وأخرى كي يستفيد من بروازها. لذلك قلنا إن أبي سارق، وأحببنا الدين الذي سيتكفل قطع يده. ولذلك بدأتُ قراءة القرآن والتفاسير والأحاديث. لكنني سرعان ما يئست بحنق وغضب شديدين، ففكرت بالمسامحة. وقرأت الإنجيل كمن يقرأ فروضه

المدرسية. قلت أسامح هذه اليد، فأرتاح. قلت أنساها، فأنام. قلت كذا، وكذا، وكذا. لكني مللتُ، ومللتُ، ومللتُ. ورحت أؤلف النكات، وأرسم يده بكل الألوان التي أملك، وأحاول أن أهزمها بالضحك. كنت أرسمها بالأحمر، وأقول لإخوتي: يده كالقنفذ. وأقول: يده مضحكة. وأقول: علينا أن نضحك. وضحكنا كما يليق بمعتوهين، وبكينا كما يجدر بأوغاد. كانت ضحكاتنا تتصاعد كالدخان، وكانت رسوماتي فاشلة بشكل يدعو إلى الأسف. نسيت أن أشرح أني كنت رساماً في طفولتي، لكن... عليّ أن أكون طبيباً أو مهندساً، والرسم لا يطعم خبزاً. ثم كانت نار في تنكة صدئة وقودها جميع لوحاتي الصغيرة التي رسمتها بدموع العين. كنت أنتهز فرصة غياب أبي عن البيت لرسمها وتلوينها بالألوان الشمعية الرخيصة. كنت أتأملها وأتخيل أنها مرسومة بألوان الباستِل الثمينة التي كنت أسمع أنها سحرية، وأنها غير موجودة إلا في لبنان. وكانت جدتي هي التي عرّفتني، من دون قصدها، لأول مرة في حياتي على شيء يدعى لبنان. قالت باسطة يديها: الله يعمر لبنان الفاتح مضافات هالجبل. آنذاك ظننت لبنان رجلاً كريماً. كان نبيل سليمان، صديقي الذي قتله ابن أحد المسؤولين ولم نجرؤ على إعلان حزننا

عليه، قد سافر ذات صيف إلى بيروت من أجل العمل فيها. لكنه عاد بعد يومين بذريعة أنه خاف من القتل. قال إن الحرب لم تتوقف بعد. وقال إن اللبنانيين أشرار. وقال إنه نجا من الموت بأعجوبة. كنا نعرف أنه يكذب، وكنا نعرف أنه لا يريد أن يعمل، وأنه قليل خَصِيَّة. لكنا صدقناه. كان لبنان بالنسبة إلينا مشروع تخيّل، وعالم أساطير وحكايا: من أراد أن يروي عليه أن يسافر إلى لبنان. وسافرت إليه، حيث تحقق أول أحلامي الصغيرة في رؤية البحر، لكن على نحو مأسوي، حين أمضيتُ على شواطئه أسبوعاً كاملاً، متشرداً من دون مأوى أو طعام. كنت أمشي ساعات وساعات طوال النهار من دار نشر إلى أخرى حاملاً رزمة من أوراق سمراء، تستعملها المطاعم الرخيصة في تنشيف الأيدي، كتبت عليها ديواني الأول. وعند هطول كل ليل أنام في الأماكن المهدمة وعلى البحر وتحت الجسور، متذكراً في حقد تحذيرات أمي البلهاء من نساء لبنان اللاتي سيستوقفنني في الشارع، ليأخذنني في سيارات فاخرة إلى الملاهي والكازينوهات وأماكن شرب الخمور وحشيشة الكيف لإفساد خلقي. بروق عريضة تعصب رأس السماء كمنديل، رعود لها قبضات عملاقة تضرب على صدور المباني، قطرات ماء ضخمة كبراميل

صغيرة، برد بأسنان طويلة وحادة تنغرز في العظام، جوع مشلول الساقين. كان الجوع الأكثر إصراراً بين كل هؤلاء: أن تمرّ جائعاً منذ أيام أمام مطعم على الرصيف فيلفح وجهك لهيب الشاورما، لكنك تتابع السير. هو ذا المشهد الذي فشلت في وصفه حتى تاريخ كتابة هذه السطور. نعم. وحدها سيرة الجوع تُكتب باللعاب والصمت. أكرّر: أن تكون بردانَ وجائعاً منذ أيام ويلفح وجهك لهيب الشاورما الساخن، وأنت تبتعد وتبتعد. لا أدري لمَ كنت أتذكر الوجودية في تلك اللحظات. ولا أعرف ما علاقة الشاورما بها. لكني كنت وجودياً ذات يوم: عندما قرأت مقالاً صغيراً عن الوجودية في جريدة قديمة وجدتها عالقة في سياج، ضربتُ برجلي على الأرض، وقررت أن أكون وجودياً. أنا الذي أحدّد الخير والشر، هذا كلّ ما فهمته من المقال. حين لاحظ أبي كثرة جلوسي على الأرصفة وقلة اكتراثي بتهديداته، سألني فأجبته. أنا وجودي، قلت له والدموع تطفو على صفحتَي عينيّ. أنا وجودي، قلت له وكأني كنت على وشك إعلان نبوءتي. كنت وجودياً إلى الدرجة التي قررت فيها أن أبي شرير ونكرة، وأني يائس. تريد الزواج من أختك؟! صاح أبي وهجم عليّ. أبي قال إن الوجودية هي أن

تتزوج أختك، وقال إنها الانحلال، وقال إنه سيشنقني. لكني يومها لم أكن قد رأيت الشاورما أبداً. كنت أسمع بها كما أسمع بالوجودية. أرصفة بيروت التي ذكرتني بالوجودية ذكرتني بأبي أيضاً وجعلتني أتنكر لأبناء قريتي. طوال أيام الجوع والتشرد تلك كانت الكنيسة المهدمة كابوسي الدائم. الكنيسة التي يتجمع فيها أبناء قريتي ويعيشون: سلالة من عمال قذرين عبارة عن هياكل عظمية مكسوة بالجلود، وشعور مليئة بالأتربة والإسمنت، وثياب محوَّرة بالعرق، وأحذية ـ غالباً ما تكون عسكرية ـ مشبعة بالجلد الميت والروائح الآدمية. كان أحد هؤلاء البائسين حدثني، ونحن في القرية، عن أنه أصيب بالسلّ في تلك الكنيسة، وكاد يموت جراء استعماله في مسح دبره منديلاً ورقياً استعمله آخرون للغاية نفسها! كنت أستمع إليه، وبي رغبة للتقيؤ في فمه، أو للبصاق في ياقة قميصه. كان يروي تلك القصة فقط كي يدلل على عصاميته وصموده: كان يرويها ليفتخر! لذلك عندما أتيت إلى لبنان سكنت الشوارع والأرصفة، ونمت تحت جسر الكولا، ولم أذهب إلى تلك الكنيسة. بعد ذلك، كان عليّ البحث عن عمل في ورش البناء والمطاعم وطرنبات البنزين. كانت معدتي الخاوية منذ أيام معصوبة ببروتيل

ممزق وقذر، عندما سألني أحد متعهّدي البناء إن كنت متعلّماً أو لا. كان سؤالاً غريباً وغير متوقع. ولأني ظننته يرفض تشغيل المتعلمين أجبته بلا، لكنه وبخني. نعر كتفي الطرية بمسطرة كبيرة، وأخذ يصرخ في وجهي: العلم كالخبز، هل تستطيع العيش من دون خبز؟ هل تستطيع العيش من دون طعام؟ وعندما أجبته: نعم أستطيع. حسبني أسخر منه، فطردني. يومذاك، تعلمت أن لا أجيب عن أسئلة كهذه، وأنا أفتش عن عمل. سنواتٍ خمساً بين بيروت وعاليه أعمل بالفاعل، ولا أتكلم مع أحد. كنت أحمل الرفش نهاراً، والقلم ليلاً. عشت خلطاً مرعباً بين الرفش والقلم. كنت حين أشرع في الكتابة ألهث وأتعرّق، وأحس بوجع في المفاصل: كنت أشعر أني أكتب بالرفش. وكانت ليلة سمعتُ فيها أبي يقول لأحد الضيوف مثلاً شائعاً: اليد التي لا تستطيع كسرها، قبّلها وادعُ عليها بالكسر. أصبت بالهلع، وأنا أستمع إليه. كان يقول ذلك بينما كانت يده تهرش باطن ركبته. ولا أدري لمَ فكرت لحظتها أن يده كانت شيئاً شبيهاً بالأقدار. حين أمشي أحس أنها بين قدميّ، فأتعثر. وحين أركض أحس أنها تطير فوق رأسي، فأطأطئه. وحين أتكلم أمام الضيوف أحسها ممسكةً بلساني، فأتلعثم. وإذا نمتُ تأتيني، في المنامات، على

شكل ثعبان أسود مليء بالأصابع والظلال. وفي كل يوم تخبرنا أمي أن جارنا عاقب أولاده بأن عرّاهم من ملابسهم، قبل أن يحرق أجسادهم بالمكواة. قالت أمي، وكانت تمثّل ذلك بيديها، إنه فعل ذلك مع ابنته التي تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً. قالت: عرّاها من ثيابها الداخلية. وقالت: إنها جميلة وصبيّة، ونهداها ككوزَي تين. وقالت: إن صراخها جراء حرقها بالمكواة كان يشبه صراخ امرأة تلد. كانت أمي تحكي، بما يشبه الشغف، كيف أن المكواة مرّت على صدرها الصغير، وعلى فخذيها. أمي حكت لنا ذلك كله من أجل أن تقول: أبوكم مثاليّ. وسرعان ما رحنا نقارن بين أبي الذي يسحب الحزام الجلدي سحباً من بنطلونه عندما يريد ضربنا، وبين جارنا الذي كان ينتزعه انتزاعاً، ممزقاً خصر البنطلون، في مشهد مسرحي كفيل بجعلنا نشمّ رائحة براز أولاده قبل أن يمسهم بأذى. كي نقول بعد ذلك إن أبانا أكثر صبراً. كنت أعيش لحظات مؤثرة يوم صرخت في وجهه: لستَ أبي، وتركتُ البيت. ليلتها تبعني إلى مكان وجودي، واستفرد بي ليقول كالمجنون: إذا لم أكن والدك فعليك أن تخبرني من هو والدك؟ وراح يضربني، كما لو أني لم أكن ولده بالفعل. من هو والدك؟ الدم من أنفي. من هو والدك؟ الدم من فمي. من

هو والدك؟ الدم على ملابسي ويديه. ليلة كاملة نمت فيها واقفاً من شدة الخوف في العراء، وعندما وجدني في الصباح أثناء بحثه عني بكى، ولم يعتذر. كانت أختي، إذا جاءت نتائج امتحانها سيئة، تأتي مرتعشة ترجونا المساعدة في إخفاء خرطوم الحمّام، قبل وصول أبي، والأحزمة الجلدية، وأحذيتنا، خصوصاً البلاستيكية. إنها الأكثر إيلاماً، كانت تقول، وكنا نعرف. كانت أختي هي الوحيدة التي تجرؤ على الردّ في وجهه. كانت تقول له: يا يهودي. وتقول: يا مجرم. وتقول: سأتصل بالشرطة. وكان يضربها بجبن جلاد. كنت لا أفهم من أين لأختي هذه المفردات والجرأة، ولمَ لا تقنع مثلنا بالبكاء ساعة الضرب. كانت أحياناً تنظر إلينا كأنها تطلب المساعدة، لكننا لم نكن نساعدها، بل كنا نشي بها. فبينما كان يحكي لنا عن فضائل الصدق، كانت قسوته تحثنا على الكذب. كان يعِدُنا بالنجاة إذا صدقناه القول، ثم ينكث الوعد دائماً، ويضربنا على نحو أكثر جسارة وقسوة. كذا كان معلمونا يفعلون. ذات مرة وقف فينا أستاذ التربية العسكرية، وقال: الصدق فضيلة، وقال: الصدق إيمان، وقال: عليكم بالصدق. عندما تأخرتُ، وكان في استطاعتي الإفلات، قررتُ أن أكون صادقاً فأخبره. يومها بحثت عنه

بعناد بغل، فوجدته في صف للطالبات، وكان بينهن فتاة أعشقها. حيّيته، ولم أكد أنطق بسبب تأخري حتى أصبحتُ كيس ملاكمة. كنت أتلقى الضربات متخيلاً وجه فتاتي وهي تسخر مني. الضربة الأولى، يا للعار. الثانية، لا بد أنها تضحك. الثالثة، وقعتُ أرضاً... وحدث أن اشتهرت بين السوريين عبارة مُو غَلَط، التي كان يرددها أحد أبطال مسلسل تلفزيوني، وحدث أن وجدوا في مدينة حماة صورة، أو صوراً لباسل الأسد، ابن الرئيس الذي قضى إثر حادث، مكتوباً أسفلها: مو غلط. قال لنا أبي: إياكم ونطق هذه الكلمة، وقال: المخابرات في كل مكان، وقال: سيأخذوننا. كانت تلك هي المرة الأولى أرى فيها أبي خائفاً. كان مشهداً مرعباً ورائعاً. كنت أحس كأني أنظر من سطح ناطحة سحاب إلى أسفل الشارع. كنت أشعر بما يشبه الدغدغة في قلبي كلما فكرت أن أبي خائف. لكن تلك الكلمة كانت تلحّ على رؤوسنا الصغيرة. صرنا نشتاق قولها، ورحنا نرددها في قلوبنا. مو غلط، قال أخي همساً. مو غلط، تخيلنا المخابرات. مو غلط، وشيتُ بأخي. كانت يد أبي أكبر ألف مرة، وهي ترفع أخي الصغير وترميه. أخي يطير في الهواء، وأنا أراقب. أخي يطير، وأنا السبب. أخي يطير... stop...

إلى اليوم لا يزال أخي معلقاً في الهواء.في اليوم التالي سألَنا أستاذ التربية القومية، قاصداً الإيقاع بنا، سؤالاً يقول: هل كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية قضية العرب الكبرى؟ يومها أجاب بنعم أحدُنا. ويومها بالَ على نفسه رعباً بعدما هجم عليه الأستاذ متهماً إياه بالصدّامية، وموالاة العراق. أمسك بخناقه، وقال: تؤيد صدام حسين! وسأل: إلى أي حزب تنتمي؟ وصاح: أنت عميل. كانت رائحة البول المنبعثة من بين فخذيه مركزة بشكل مشين، ولا أدري لمَ فكرتُ أنها رائحة حذاء. كانت شبيهة برائحة ذلك المجند الأمّيّ الذي بصم بالدم فوق كلمة لا أثناء انتخاب حافظ الأسد: كانت رائحتنا جميعاً. وكان الزمن زمن الطوابير التي تقضي صباحاتها تدافعاً وزعيقاً وشتائم من أجل الحصول على علبة محارم ورقية أو صفيحة سمنة أو كيلو من السكّر، عندما استيقظ أهل مدينة السويداء على المشهد التالي: تمثال الرئيس حافظ الأسد في وسط المدينة ازداد علبة سمنة فارغة عُلِّقت في يده اليمنى المرفوعة لتحيي الشعب. في البداية أخبرونا أن منظر التمثال كان مرعباً مع تلك العلبة. بعد ذلك أكّدوا أن الرئيس غاضب. ثم قالوا:الويل لهذه المدينة. أخبرونا بذلك فشردنا، وعوض أن نضحك ارتعبنا. وتخيّلنا

أبي واقفاً يمد يده التي تدلّت منها علبة السمنة الفارغة، قبل أن يضرب رأسه بالحائط. كان أبي لا يفوّت غضباً إلا ويضرب رأسه بحيطان البيت، وكانت أمي تركع لتقبيل قدميه ترجوه أن يكف عن ذلك. لكنه كان يزداد عنفاً في نطح الحائط كلما ارتفع صراخنا وبكاؤنا. كنتُ كلما فعل ذلك أزداد حقداً عليه وعلى الله والعالم، وكان أكثر ما يزعجني في هذا المشهد تجنّبه ضرب رأسه بالأبواب خشية كسرها. لذلك عندما رحنا نقلّده جرّبنا رؤوسنا في الأبواب أولاً. كسّرنا الأبواب والشبابيك، وأبي يحكي عما قاله في شعبة الحزب، ويحكي عن اجتماعهم بالرفيق عبدالله الأحمر، ويشتم بعثيي العراق. كنت أخاف تلك الكلمات: أمين الفرقة الحزبية، شعبة الحزب، عبدالله الأحمر. وبعدما كنا ننام خوفاً من قصة الغول التي تحكيها لنا أمي كل ليلة، بتنا ننام خوفاً من حكايات أبي: غول أبي كان حقيقياً. كان أبي قد خدعني، حتى سن العاشرة، حين أقنعني أنه يستطيع اكتشاف الذين يكذبون. عندما كذبتُ عليه، ولم يكتشف ذلك، كسرتُ له شجرة الجوري التي كان يدّعي أنها مباركة، ورحت أخترع الأكاذيب للانتقام منه. صرت كلما كذبتُ عليه أزداد ثقة بالنفس. صار الكذب على أبي نصراً معنوياً. وبالغتُ في

انتصاراتي: صرت كذّاباً حقيقياً. كنتُ إذا قالوا إن حادثاً وقع، أقول: مات الجميع. وإذا قالوا إن الثلج يتساقط، أقول: أمتاراً. وإذا قالوا إن أحدهم سافر، أقول: إلى الأبد. لكني صرتُ أبي في غيابه. صرت أضرب الجميع حين لا يكون هنا. صرت يده التي لا تغيب، والتي لا تعرف الشفقة، والتي نحتت من لحم أخي الصغير وعظامه نُصْباً بارزاً للظلم والكراهية. كان أخي مريضاً على الدوام كدوّار شمس، ونحيلاً كما يجدر بعبقري. العسل الذي يطفح من عينيه يوحي المرض، غمّازتاه الثابتتان في خديه، أظافره المقضومة حتى اللحم، خراؤه الغريب الرائحة والعالق دوماً على حائط الحمّام. كان في أيام مرضه يُحمَل على كتف أبي العالية كلعبة خشبية: كان صغير الحجم بالنسبة إلينا، أنا وأبي، وكنا نتناوب على ضربه: كنتُ وغداً، وبإخلاص أريد أن أكون أبي وجبروته. لكن الذنب سرعان ما كان يمتطيني كالدابّة، فأبكي أمام أخي، ونتصالح. كان يكره البحر والأطفال لأنهما يذكرانه بضعفه. لا أستطيع إطالة النظر فيهما مطلقاً كأنهما جسد مفتوح في غرفة عمليات، كان يقول. وكنا نصدق. كان مرضه الدائم، ونحافة جسمه، والدود الذي يملأ برازه، مصدر الأزمات المتتالية في عائلتنا. وكان أبي ينام عند قدميه

أيام مرضه، ويضع يده الكبيرة بين وقت وآخر على جبينه للتأكد من حرارته. كنت أشعر بانفعال أخي واضطرابه، وشعوره بدغدغة داخلية أثناء ذلك. كان شعوراً مربكاً ومقلقاً ذاك الذي نعيشه حين يلمس أبي جلد أحدنا بيده، لأخذ حرارتنا، أو لقصّ شعورنا: كان أبي في أيام مرضنا يقصم ظهورنا بضعفه ومَسْكنته، وكان ذلك يجعلنا أكثر حقداً عليه. وكان من الفصول الصيفُ يوم دخل أخي المستشفى بسبب الحصى التي ملأت كليته اليسرى. ومن الفصول الصيف عندما حقنه أحد الأطباء الحكوميين إبرةً ظليلية. لا أعرف كيف تُكتب. ومن الفصول الصيف عندما أخذت البقع الزرقاء تطفح على جلد أخي بسبب تلك الإبرة. يومها، راح الطبيب الوغد الذي حقنه يضرب رأسه بيديه، ويصيح: مات الصبي، ضاع مستقبلي. أخي كان يستمع إلى الطبيب مرتعباً، وينظر إلى وجوهنا بكل ما أوتي من قوة. أخي حاول النظر إلى النافذة لإلقاء النظرة الأخيرة على العالم. أخي كان يودع الحياة على وقع لحن مأسوي لفريد الأطرش. لكنه سينجو بعد ذلك، وسيقول أبي للناس: بأعجوبة! وسيحاول أخي الانتحار لاحقاً، وسينجو أيضاً. ولن يعلّق أبي هذه المرة. عندما أصيب أخي بمرض في الحالب، لا يصيب في العادة

سوى طفل واحد من بين كل عشرة آلاف، كما أخبرنا الطبيب، سيقف هذا الصغير على حافة سرير المستشفى ضاغطاً أنبوب السيرون بأصابعه، ليقول: تخيّلوا! ورحنا نتخيل: حشود وحشود من أطفال ضخام وأقزام يبلغ عددهم العشرة آلاف، بعيون خضراء وسوداء مسوّرة بأهداب كبيرة، وصدور صغيرة مملوءة بروائح بيوتهم وفساتين أمهاتهم، يقضمون أظافرهم بأسنانهم بعدما حزموا لعبهم الرخيصة في حقائبهم المدرسية. نظراتهم معلّقة كطائرات ورقية بيد كبيرة ومرعبة تريد رمي حصاة على أحدهم. إذاً، عشرة آلاف طفل، بينهم أخي، ستختار الحصاة واحداً منهم كي يُصاب بمرض في الحالب. الجميع فكّر بأنه من غير المعقول أن تصيبه الحصاة. لكنها أصابتني أنا، اختارتني أنا، قال أخي بتأثر، وسقط عن حافة السرير. ذات يوم، ذات مساء نظر هذا الصغير إلى أبي، وقال له مازحاً: بتعيرنا إيدك؟ يومها ضحك أبي كثيراً وقليلاً. ضحك بفخر كالأطفال، وضحكنا معه. لا أعرف لمَ كنا نضحك من كل قلوبنا حين كان يضحك. ورحنا نمتدح يده كي يستمر في الضحك، ونقول له: بتعيرنا إيدك؟ كنا نقول ذلك بسعادة ورضا عن النفس. بتعيرنا إيدك؟ هه هه. بتعيرنا إيدك؟ هه هه هه. بتعيرنا إيدك؟

هه هه هه هه. وكان في بيتنا كومودينة حديدية فيها رفان يصلحان كمكتبة صغيرة. كانت كتب أبي الحزبية تحتلّهما. لم يكن لديّ ما يكفي من الكتب لملئهما، ولا من الشجاعة لمواجهة أبي. لذا كرهته، وكرهت كتبه. كانت كتباً سميكة جداً ومرعبة. كانت أغلفتها بلونين (الأسود ولون آخر). كنت أتعجب من أنها غير مفيدة: كتب بمئات الصفحات ومن غير معنى؟ كنت أسأل نفسي، ولا أجرؤ على سؤال أبي. لذلك كان أول ما فعلتُه، عقب انقلابنا عليه أنا وإخوتي، احتلال هذه المكتبة، وإفراغها من كل الكتب الحزبية. لكني في الحقيقة لا أعرف... أشعر أني مشوّش الآن. لا أعرف ما الذي جعلني أعترف بكل ذلك، وما الذي يدفعني لمواصلة الكتابة. أتكون تلك الكردية التي التقيتها في بيروت، والتي حكت لي عن أبيها وعن يده؟ كان اسمها ناديا شيخي، وكانت تعمل خادمة في بيروت. كنت في ذلك الوقت أعمل دهّاناً في بيت مخدومتها عندما طلبت مني مساعدتها في الهرب. كانت قصيرة جداً، كما يليق بخادمة. الشامة الكبيرة في خدها الأيسر، والتي تظهر من بعيد كأنها ندب، لا تصلح دليلاً على ما روته وأرويه. كانت مسكينة وكنت وغداً. ضاجعتها. نعم. لقد نمتُ معها. كنت أدهن بالقرب من غرفتها عندما نادتني

باسمي، وكان البيت خالياً، وراحت تحكي لي قصتها. قالت إن اسمها ناديا شيخي. وقالت إن أباها كان يناديها في طفولتها باسمها كما هو، لكنها عندما صارت صبيّة سماها نانو. قالت إن من المحزن أن تكون ناديا في الطفولة، ونانو في السابعة عشرة من عمرها. بخرطوم الماء الموصول في حنفية الحمّام كان يضرب أمها. لم يكن يضربها إلا على مؤخرتها. استديري، فتستدير. ويرتفع العويل والألم. قالت إن أمها كانت ترتجف هلعاً عندما يركض صوب الحمّام، وإنها اضطرت إلى إخفاء هذا الخرطوم، واضطروا للاغتسال من دونه. لكن القزم، هكذا يسمونه في الحي، كان يقول للناس إنه يحبها، وإن المرأة كالكنزة التي تُلبس على الوجه والقفا، ثم يقف على رؤوس أصابعه، ويبدأ بالضحك. كانت تخاف من تلك الضحكة، خصوصاً حين تتخيل نفسها كنزة، والناس يلبسونها على الوجهين. بعد ذلك صارت نانو تحلم كل ليلة أنها تخوّض في بحر من دماء الماشية: سوق طويل من اللحم المعلّق. حشود من عجول مذبوحة من الأعناق، ديوك غير منتوفة ذات أعراف حمراء قانية رقابها نوافير دم، دجاج بلا رؤوس، جداء مهروسة الصدر، ماعز أسود مقطّع تحت البلطات والسواطير، ثيران مكومة تحت جلودها المسلوخة،

ذباب ضخم لا يستطيع الطيران. وهي تخوّض وتغرق، ودم الماشية حارّ وسميك، وأبوها يضحك ويناديها: يا كنزة. كل ليلة الحلم نفسه. ذات يوم قالت له أمها، بعد إحدى حفلات الضرب اليومية، بأن يتمثّل المعاملة الحسنة التي يعاملها جاره لزوجته. قالت له إن زوج جارتها يستحق منها أن تشرب الماء الذي يغسل فيه قدميه. بعد ذلك سيغسل أبوها قدميه في وعاء، وسيُجبر أمها على الشرب منه. كانت ناديا شيخي تتوقف في كل مرة لوصف شدقه الكبير، وعينيه اللتين تشبهان الخَرَز، وتقرأ آية الكرسي. كان مولعاً برواية النكات الجنسية. كان مولعاً بأن يصف. كان يتوقف عند المشهد الجنسي في النكتة، أكثر من وقوفه على المضحك فيها، ويرويه بشراهة. فيصف مشاهد الاغتصاب واللواط والشذوذ والسحاق أمامهم كما لو أنها تحدث الآن. وكانوا عائلة لا تتقن إلا الكردية، وعربية مكسّرة كما يليق بلغة يكرهونها. لكن أباها كان يستعملها، ولا يستعمل سواها، كلما انفرد بها: كان يهمس بالعربية، ويصرخ بالعربية، ويضاجعها بالعربية. في ما بعد صار يريحها ذلك، فصارت تفعل مثله. كانا يخادعان الخطيئة باللغة حين يتحدثان بلغة الأعداء: يستعملانها في الخطايا فقط. نانو كانت تروي، وعيناها مثبّتتان في زاوية الغرفة، أنها

عاشت طفولتها شحاذة تجوب الشوارع مع أمها، وتدق الأبواب، وتتعلق بأكمام المارة وأبواب السيارات قائلة: من مال الله. في البداية لم تكن تفهم معنى هذه العبارة. كانت تظن أنها من القرآن. ذلك الصباح، كالعادة، أرادت الخروج مع والدتها وأختها الصغرى. لكنه صاح بها كي تبقى، فأمسكتها أمها من ذراعها، فبكت. ظنت أنه سيضربها، وأنها كبرت كفاية لتستحق الضرب. كانت تخاف أن تصبح في عمر أمها: عمر الضرب. لكنه أخذها من يدها، وصاح بأمها أن تذهب. أمها التي لم تكلمها طوال يومين، وعندما فعلت ذلك قالت شيئاً محزناً. قالت: شرموطة. نانو أقسمت إن أمها كانت تعرف بالذي سيحدث. نانو حركت يدها صوب الزاوية، وقالت: انظر. نانو تعرّت، وأخذت تجهش في البكاء. كان جسدها حاراً وأبيضَ كأنه مطبوخ بالحليب والقشدة، وكانت أسنانها بيضاء كأنما قُشرت للتوّ، ولفرط بياض نهديها ظننت أنهما صُنعا من زجاج شفّاف أظهر الحليبَ داخلهما. أجلسها على ركبتيه، كما لو أنه سيمشط لها شعرها، وكانت أصابعه الثخينة مشطاً كبيراً. قال إنه يكره أمها، وإنه يحبها، وإنها جميلة وصبيّة. وأثناء ذلك صار المشط بين فخذيها. كان خشناً في البداية، ولحظتها رأت وجه حبيبها شيخ موس يمر

كالمذنّب. بعد ذلك شعرت بالأرانب تخرج من تحت فستانها، وبالحَمَام يفقس بين نهديها. كان أبي ساحراً من دون قبعة، قالت لي. كنتُ قبعته السحرية. ثم لَحَسَتِ الشعر عن صدري وعن أذنيّ. وضع يده في جيبه، قالت نانو، وأخرج قلم حُمرة في حجم إبهامه، وضحك لها. راح يأكل الحمرة، ويقول: لذيذة. طالباً منها تذوقها من فمه. كان كل شيء جديداً على نانو، وكانت بعد ذلك تذهب إلى شيخ موس كي تعلمه ما تعلمت. خافت من الدم الذي سال بين رجليها. ظنت أنه طعنها بسكين. كان الدم حاراً أحرقها، أو هكذا أحست به: ساخناً كدماء الماشية المذبوحة للتو. لم يمهلها لتحدق طويلاً في دمها. مسحه بالخرقة التي في يدها، الخرقة التي كانت تستعملها في مسح زجاج السيارات عند إشارة المرور. لكنه مسحه بقسوة وجسارة، فأغمي عليها. كانت يده السميكة والصلبة تلسع خديها كي تجبرها على النهوض، عندما قال لها إنها لن تشحذ بعد اليوم، وإنها ستبقى معه، وسترافقه أينما ذهب. ورافقته بعد شهور خمسة، حيث ركبت البولمان لأول مرة، ورأت مدينة حقيقية لأول مرة: رأت بيروت. في تلك الشهور الخمسة كانت عشيقته: تكرهه، تخاف منه، وتحبه. صارت مولعة به. لا تخرج مع أمها، وتتمنى له

الموت. لكن يده كانت تثيرها: كانت ذَكَره الظاهر. يد سحرية تكفي خمس نساء. كانت تتخيل كل إصبع فيها قضيباً، وكان يعرف ذلك. نانو قالت إنه كان يبدأ بتحريك أصابعه أمامها قبل أن يلمسها، كما لو أنه سيلبس قفازاً: تخيلته مزيِّناً نسائياً، وراحت تتمثّل المقص بين أصابعه القصيرة يقص شعرها الأشقر الطويل الذي يصل إلى طيزها، كما يقول أهل الحي. لكنه كان يوجعها ويدميها. لم يكن لمشطه أسنان: كان مشطاً بأنياب. نانو وقفت وسط الغرفة، وأدارت ظهرها لي. نانو رفعت ذراعيها، وقرأت آية الكرسي. نانو عصرت ثدييها، قبل أن يأخذ جسدها شكل الصليب. عندما حبلت، وضربتها أمها على بطنها، وتحدث الناس عنها، هاجم أبوها بيت شيخ موس، واتهمه بالزنى معها. فهرب شيخ موس إلى عند أخواله في حلب. بعد ذلك، صارت ناديا شيخي لعبة بين يدَي تلك العجوز التي أجهضتها. نانو قالت: مددتني على ظهري كنعجة على وشك الذبح. وقالت: ثبتتني أمي من ذراعيّ بقوة قصّاب. وقالت: أغمي عليّ، ورأيت اللحم المعلق والمكوّم: العجول المذبوحة بشفرات كبيرة، الرؤوس المقطوعة التي تعضّ على ألسنتها، الذباب المُقْعَد والعاجز كالدجاج. إلخ إلخ. بينما كنت أحاول أن ألمس أسلاك شعرها النحاسي

فتحت نانو جاروراً في خزانتها الحديدية، وأخرجت جرساً صغيراً علّقته في رقبتها. دارت دورتين حول نفسها، وقالت: ما رأيك؟ كانت أعواد الشموع الغليظة، المنتصبة كأعمدة الكهرباء في زوايا غرفتها، تمنح جسدها العاري شكل شمعة أنثوية قصيرة. قبل أن تدخل نانو في نوبة رقص هستيرية، بعدما قطّعت حبالها الصوتية في الصراخ والهسيس، كنت أرى دموعها الكبيرة، لا أدري لمَ فكرت أنها دموع مستعملة، تتساقط كالمطر على عيون الناس، ونوافذ الشقق، وزجاج السيارات. نانو راحت ترقص في أرض الغرفة يتيمة ومحزنة كوتر ربابة. كان صوت الجرس في رقبتها بعيداً كأجراس القطعان، ومبهماً كأجراس الكنائس. شعرها مغسول بالعرق والدمع، وجهها وضّاح كنقطة رمي حيّة. عندما وصلت ناديا شيخي إلى بيروت، ورأت المباني العالية، شعرت أن حلمها تفسَّر. غريب! ما الذي يجمع بين الذبائح المعلقة والمباني العالية؟ بين الطرق الواسعة ودماء الماشية؟ رحتُ أسألها عن ذلك، ولم تجبني. لكني فكرت أن حلمها تفسر. كانت في حاجة إلى سفر كي تفسر حلمها. لذا لم يعد يأتيها ذلك المنام أبداً: الحلم عندما يتفسر يموت، الكابوس أيضاً. بيروت فسّرت حلم القامشلي. فكرتُ أن المدن هكذا. في البداية

كانت بيروت سوق لحم طويلاً من الذبائح المعلّقة. لكنها سرعان ما عادت إلى حقيقتها. لم يعد الإسمنت يوحي اللحم، ولا الإسفلت الدماء. في القامشلي، كان الوحل الخالد في الشوارع بلا معنى، تماماً كالشعارات الكبيرة المكتوبة باللغة العربية على الحيطان. ناديا شيخي صارت خادمة، بعدما كانت شحاذة، قالت ذلك بتأثر كبير. أخبرتني أن مخدومتها تقول لها كل صباح إنها كلّفتها أربعة آلاف دولار. أخبرتني أنها طالما عيّرتها بكبر صدرها ومؤخرتها: عَ كتر الاستعمال. أخبرتني أنها قالت ذلك في بطء شديد خشية أن تُفلت تركيبة أسنانها. أبوها الذي باعها من أحد مكاتب الخدم في بيروت، لا يأتي إلا مرة في السنة كي يقبض ثمنها السنوي من صاحب هذا المكتب المدعو عبدالله. نانو قالت إن هويتها وجميع أوراقها الثبوتية محجوزة لديه، وإن عبدالله أمرها منذ اليوم الأول أن تناديه بابا، وإن بابا عبدالله نام معها قبل أن يسلمها إلى الحاجة أم حسين في منطقة رأس النبع. كان الهرب مع شيخ موس إلى تركيا الحلم الكبير الذي راود نانو، منذ كانت وإياه طفلين يلتقيان في الخَرَابة وراء بيت أهله. نانو حملت نهديها كقطتين ميتتين، والتفتت إليّ. نانو وقفت على رجل واحدة، وقالت سنأخذك معنا إلى تركيا. نانو وقعت على

الأرض، وراحت تهذي بالكردية. أثناء ذلك كانت رائحة جسدها شائطة كسكّر محروق. كان نهداها الأبيضان قطعتَي عجين كبيرتين لم تُخبزا، وشعرها يسيل كالسمن الأشقر، وقطّها كعش دبابير، وفخذاها. أنا وغد. أعترف. وكانت عيناها مليئتين بأعواد الكبريت، ووجهها يتوهج كالفرن، ولحمها مدعوس بالشهوات. هكذا. هكذا. امرأة مهروسة على رغيف خبز. امرأة تقدِّر حزنها باللحم. امرأة مفتوحة الجسد على الآخر. امرأة مهيأة لألف ذكر، وألف فحل، وألف زبّ. سحبتها من شعرها الطويل والأشقر. جعلته كالرسن، واعتليتها من الخلف كحصان. كانت ناديا شيخي أول فتاة أذوق لحمها ومَرَقَها، وأقضم ركبتيها ومعصميها بأسناني. كانت ناديا شيخي أول فتاة أشرب دموعها، وعَرَق شَعرها ومسامها. شرموطة الشدّادي؟ أمّ صالح؟ لا. لا. كانت هرمة وعوراء. صدرها أشبه بكيسَي قمامة، وعينها المطفأة كصرّة مليئة بشعر الحواجب، ولسانها كجناح خفاش، وأنفها كواقٍ مليء بالمني، وكان فرجها مليئاً بالأتربة والحصى، وفمها. كانت شمس الظهيرة منقوعة بالأسيد حين قررت أن أدفن قضيبي في قبر يقع بين فخذيْ تلك المرأة العجوز. كنت مسكوناً بهاجس النيك، هي ذي الكلمة

المناسبة، وكانت سمعة هذه المرأة مغرية بين صبية لم يروا في حياتهم سوى أعشاش أمهاتهم خلسة في الليل والحمّامات والولادة. كنت أتخيل جسدها كيساً من البلغم، ونهديها جرّتَي حليب فاسد، وبياض عينها ككتلة من لبن متخثر، ولوزتيها تسبحان في مجرور، ومفاصلها صفراء ونيئة. لكني اتخذت القرار. وقفتُ وراء باب المطبخ حاملاً سكين اللحم الكبير في يدي، وفي الأخرى حصّالة بلاستيكية كنت أجمع فيها النقود المعدنية. ومن دون أن أقدّر حجم ثروتي، بخشتُ الحصّالة بحيث تصبح شبيهة بفرج مراهقة، وقلبتها إلى الأسفل. خمسون ليرة كانت ثمن الرعب الذي كتبت في حمّاه أثمن قصائدي على ورق رسائل ملون غسلته في الماء لاحقاً، وألقيته في كهريز مفتوح. بؤرة من لحم مهترئ، لحم مقدّد، لحم مليء بالدود، لحم جيفة. دخلت غرفتها فوجدتها مستلقية فوق فراش قذر ممدود على الأرض، كجرذ مرمي بين النفايات. كان منظراً غير واقعي بالنسبة إلى ولد. كانت عينها مقلوبة إلى الخلف كمرآة جانبية في سيارة، ونظراتها بطيئة وهادئة كالسم. تبتسم من بين أسنانها، وتقول لي: تعال، تعال. جسد محشو بالمسامير، شعر مليء بالروث، نخاع تحت الأظافر، مسامات كبيرة كأنها آثار إبر مقلوعة من الجلد،

إبط خشن كسيفة الجلي، ثدي حلمته أكبر من فمي: كانت حلمة ذات لون بنّي داكن ممسوحة من دون ملامح. شيء شبيه برقعة دولاب بسكليت، هكذا قلت يومها. مذاق كالمطاط، وإحساس قوي بأني أعضّ على جثة مهترئة. كان منظري فوق ثديها أقرب إلى طفل يرضع، من رجل ينيك. وعوض أن أقذف في جوفها، تقيأتُ على صدرها: كتل من لحم غير ممضوغة جيداً، كتل من خبز تحول إلى نصف خراء، سائل برتقالي وزهري اللون سال إلى ما تحت إبطيها. لكنها لم تنهرني. كانت حنونة بشكل مذلّ: أبعدتني برفق عنها، وراحت تكشط القيء عن صدرها بأصابعها، ثم تمسحها بالفراش. كنت ما أزال واقفاً بعضو متدلٍّ رفيع كالدودة، وسروال قطني سميك بين كاحليّ، حين قالت لي: تعلّمْ بالجحاش مع العِجْيان. وذهبت مع العجيان (الأولاد) كي أتعلم، يوم كانوا يترصدون الرعيان في البرية، ويهجمون عليهم بالعشرات كي يأسروا معزاة عرجاء، أو كلبة جرباء، أو جحشة صغيرة بأذن مقصوصة وكسّ أسود يملأونه منياً وبولاً، وهم يصيحون بمرح ومجون: قال باعا قال... بعد ذلك يفجّرون فيه حزمة كبيرة من المفرقعات، كي يستمتعوا بمرأى الدماء التي اختلطت بمنيهم. يومها كنت أتفرّج عليهم

من بعيد، ويومها فكرت بالانتحار لأول مرة في حياتي. عندما أشعلوا فرج الدابّة بالمفرقعات بكيت، فضحكوا عليّ، وقالوا إني طنطا. لكني لم أكن كذلك. أنا في الحقيقة أزعجتني فكرة أنهم لا يلبسون ثياباً داخلية. ذكروني بأدهم، ذلك الصبي الذي كان عدواً لكل شيء يسمى كلسوناً. كان صاحب أير طويل يصل إلى الذقن، كما كان يردد، وكنا نصدق. كانت معلمتنا العانس تقوم يومياً قبل بدء الدروس بكشف دوري عليه بحجة التأكد من ارتدائه الكلسون. كانت تقول: أغمضوا عيونكم، فنغمض. وتقول: ضعوا أيديكم فوقها، فنضع ونشدّ. وتقول: إياكم أن تفتحوها، إني أراكم، فتحمرّ وجوهنا خجلاً. بعد ذلك كنا نشمت بأدهم وبأيره، ونشكر الله على تواضع أيورنا. لكن أدهم كان يحكي لنا الحكايات عما يحدث معه خلال الدقائق الخمس التي نغمض بها أعيننا. كان يبدأ الحكاية بالقول: بسم الله الرحمن الرحيم، مشمّراً عن ذراعيه وكأنه على وشك البدء بالأكل. ثم يبدأ بالضحك، ونضحك معه دونما سبب. ثم يسكت فجأة، ويرفع يديه إلى السماء، ويبدأ الحكاية: أمسكتني من هنا. قبّلتني من هنا. بصقت في يدها هكذا. ثم آآآآآآآآآآآآه. كنت أظن أنه يكذب، وأن معلمتنا شريفة، هو ذا التعبير الذي استخدمته احتجاجاً

على كلامه المسيء. لذلك صار يطردني من جلساته، ويقول إني طنطا. أنا عندما رأيت الأولاد من دون سراويل، يفرقعون مؤخرة الأتان، تذكرت أدهم. تذكرته في عيد المعلم. كنت قد جهّزتُ هديتي قبل يومين: قنينة عطر رخيصة ملفوفة بشريط سيلوفان أحمر ينتهي بعقدة بديعة، تشبه العقدة التي تصنعها لي أمي في رباط حذائي. ليلتها حلمتُ أن المعلمة طلبت من التلاميذ إغماض عيونهم، كي يتسنى لها الكشف على كلسوني، وأن القنينة أفلتت من يدي، فانكسرت. في اليوم التالي سيكون أدهم آخر من يقدم هديته إلى المعلمة العانس البدينة: كلسون نسائي أحمر ستفرح به كثيراً، وستقبّله على مرأى من أعيننا جميعاً، وستكفّ عن تعريته للكشف على كلسونه. حسناً. سأعترف. سأعترف. كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما كوفئتُ على تفوقي المدرسي بملء استمارة خاصة بي تعلن انتسابي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي. وبعدما منحوني رقماً، هو رقمي الحزبيّ، بكيت بعيداً عنهم: في العلن كمذنب، وفي السرّ كيتيم. كنت صبياً يحب تشي غيفارا، ويريد أن يصبح شيوعياً. كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما انتفضتْ كل أعضاء جسدي هلعاً جراء اقتحامه الغرفة: كان أبي يقوم

بالتفتيش اليومي في كتبي، كي يتأكد أني لم أعد أرسم أو أكتب الشعر. كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما سخر مني أصدقائي بسبب تورم كبير في وجهي، لم تفلح السيدارة (القبّعة) المدرسية في إخفائه. كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما لم أعد أستطيع القراءة عن لوح الصف. عندما أخبرتُه بذلك، وعندما جنّ جنونه، قال إن نظري سليم، وقال إني أكذب، وإنه سيفحصني. وفحصني. قال: قف هناك، فوقفتُ. قال: أغمض عينيك، فأغمضتُ. كتب حرفاً على الحائط، وقال: اقرأ، ففتحتُ عينيّ، لكني لم أستطع القراءة. قال: اقرأ. زممتُ عينيّ، وكززت على أسناني. قال: اقرأ. أحسست الدموع تصعد إلى دماغي وصدغيّ. قال: اقرأ. لكني لم أكن نبيّاً. وبعدما فَقَدَ صوابه، وبعدما قال: راح الصبي، وضرب رأسه بالحائط، طلبتُ مساعدة أمي، لكنها كانت أُميّة، لا تعرف القراءة أو الكتابة. كانت تنظر مذعورة إلى الأحرف التي يكتبها أبي، وكأنها ترى عنقوداً من الثعابين: عينان شهلاوان، أقرب إلى الخضرة، مبحلقتان في الفراغ، وعنق منتفخ كرغيف، ويدان مفتوحتا الأصابع على آخرهما، ورِجْل إلى الخلف بحيث تظهر التشققات في الكعب، وشفتان تتحركان كما لو أنها تتهجأ. صحيح. صحيح. لجأتُ

إلى الغشّ. رحتُ أراقب حركة يده أثناء الكتابة، وأتصوّر الحرف. ونجحتُ. نجحتُ. نجحتُ. وكان يوم من أيام حزيران، وقفتُ في وجهه كما يليق بمن كان أبوه بعثياً. لقد انتظرتُ حتى الخامسة عشرة من عمري كي أفعل ذلك: يد صغيرة ألوّح بها في وجه رجل ضخم، ودموعي على عرض خدودي، صائحاً به، محدّقاً في يده التي رفعها لضرب أمي. سأكسرها لك، كنت أظنها اللحظة الأخيرة في حياتي. سأكسرها لك، كنت أظن أنه لن يرحمني أبداً. سأكسرها لك، كنت أظن أنه سيصرعني في ضربة واحدة. وأغمضتُ عينيّ في انتظار وصول يده. لحظة تمرّ، واليد لا تصل. لحظة ثانية، واليد بعيدة. ثالثة... أفتح عينيّ: تمثال رجل أسمر عيناه مليئتان بالنمل، له شاربان ليسا كثّين جداً، لكن لمعانهما الفولاذي مخيف. يده الكبيرة في الهواء تستعد للانقضاض على امرأة حَمَتْ وجهها بيديها، وبطنها بأن طوتْ رجليها. شعر صدره وإبطيه واضح لأنه كان في ثيابه الداخلية. عيناه موجهتان صوبي ولا تلمعان. إذاً، يده مصوّبة نحو أمي، وعيناه نحوي: هكذا انهزم أبي. عندما يصبح القصّ ممكناً تكون الحكاية قد انتهت. أبي اليوم بات أباً مثالياً في التعامل مع إخوتي الصغار. لا يترك يوماً يمرّ من دون أن يقول إنه

السبب في الذي حدث لأخي، وإن ذنبه أثقل من أن تحمله يده. على الدموع أن تكون مسنونة أكثر بعد هذا اليوم، وعلى الأولاد أن لا يصدّقوا أمهاتهم. أبي الذي حدّثتكم عنه مات. المرعب أنه مدفون هنا بالضبط، في المكان نفسه الذي أروي منه. أنا خائف يا أمي: في ذاكرتي قبر!

استدراك: مخجل أن أقول إني انتظرتُ حتى كتابة السطر الأخير كي أفكر في مصير أبي. كي أفكر في شكل الذبحة القلبية التي قد تصيبه عندما سيقرأ هذا الكتاب الملعون. لكن إذا قُدِّرَ له أن ينجو، وأتمنى ذلك، سأركع أمام قدميه النحيلتين صاغراً كما يليق بابن أو مجرم، وسأقبّل يده... اليد نفسها.



كان على أبي أن يكون بعثياً، وكان عليّ أن أكون ابنه، وأن أعيش رعب ذلك، وأن أغصّ. أن أكون ابناً لرجل بعثي يعني أن أحيا طفولة مختلفة، ويعني أن أشرق في البكاء كلما استطعت، ويعني أن أقود انقلاباً عليه، وأن أخونه عندما أكبر. أن أكون ابناً لرجل بعثي يعني أن أتذكر ذلك المجند الكردي الذي وشم اسم حافظ الأسد على ظهره لمنع الضابط المسؤول من ضربه بالكرباج. في البداية وشم ظهره. بعد ذلك صدره، ثم يديه ورجليه. عندما كنا أطفالاً، لم يكن لدينا ما نشمه على ظهورنا وأجسادنا. كانت يد أبي مطلقة. كانت بعثنا المنزلي.

ISBN 9953-11-011-5